شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١٧ إلى الدرس ١٩

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٩/٠١ هـ

الدرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا.

قال الإمام شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له والشراح والسامعين :

باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

وقول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ **الآية** [هود:١١٦] .

****

قال المصنف رحمة الله : ((**باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء**)) ؛ ما جاء في غربة الإسلام: أي ما جاء في نصوص السنة من دلالةٍ على أن الإسلام يؤول أمره إلى غربة كما أن بدأه كان في غربة ،حيث إن الإسلام بدء غريباً وسيعود كذلك غريباً . والغريب : هو الرجل الذي غادر وطنه وبلده إلى مكان آخر لا يعرف فيه أحداً، ولهذا جاء في الحديث: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) ؛ الغريب هو الذي يدخل بلداً ليس له فيه معرفة ، لا يعرفه الناس ولا يعرف الناس ، من يراه لا يعرفه ، وهذا أيضًا شأن الإسلام عندما يكون غريباً يصبح من يعرفه قلائل من الناس ، وأكثر الناس ينكرونه ويجهلونه ويعادونه ويعادون أعماله وخِلاله ؛ فيكون أمره غريباً ، وأمر أهله المحافظين عليه المستمسكين به الغربة كذلك ، فيكون الإسلام غريبًا ويكون أهله غرباء ، وقد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ما يدل على فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ .

وإيراد المصنف رحمه الله لهذه الترجمة في كتاب «فضل الإسلام» ليبين هذه الفضيلة المخصوصة للإسلام في حق من حافظ عليه وقت غربته وأن له عند الله ﷻ ثواباً عظيمًا ، فالإسلام له فضائل عظام كثيرة ويختص بمزيد فضائل عندما يكون أمره بين الناس غريبا ، فالمستمسك به في هذه الحال شأنه كالقابض على الجمر وثوابه عند الله تعالى عظيمٌ ، ولأجل ذا عقد المصنف هذه الترجمة ليبين فيها أن الإسلام يعود غريباً ، وأن ثواب الاستمساك به والمحافظة عليه وقت غربته أعظم وله ثوابٌ مخصوص ، من كان استمساكه بالدين كالقبض على الجمر من كثرة الأعداء وكثرة المنفِّرين وكثرة الشانئين ويكون مستمسكاً معتصماً محافظا فهذا له ثواب عند الله ﷻ عظيم ؛ ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذه الترجمة في باب فضل الإسلام .

قال : ((**باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء**)) ؛ وهو في هذه الترجمة سيتحدث عن أمرين، الأمر الأول: غربة الإسلام؛ أي أن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ غريباً .

وحتى تستحضر عوْد الإسلام غريباً كما بدأ تفكر في بدئه غريباً ؛ كيف كان أمر الإسلام ؟ جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) ؛ أبغضهم أي قاطبة . في خضم هذه الظلمة المغطية لأرجاء هذه الأرض بدأ الإسلام ، وأول من بدأ بالإسلام دعوةً إليه ونصرةً له ونشراً له هو نبينا ﷺ ؛ فبدأ وحده يدعو إلى الإسلام الصحيح ودين الله القويم الذي نزل عليه بالوحي ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء:٤٥] ، ثم آمن معه نفر قلائل ، وأول من آمن هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم آمن أيضا بلال وقلائل من الصحابة ، قلائل هم الذين أسلموا في بادئ الأمر وكان شأنهم في غربة ، هم غرباء لكن بين من ؟ يمشي جنباً إلى جنب مع والده وأمه وأخته وأخيه وعمه وخاله وجاره وهو في الوقت نفسه غريب ، غريب بين أهله ، مثله مثل شخص دخل بلد لا يعرف فيها أحد وكل من رآه أنكره ، هكذا بدأ ، وكانوا قلائل الذين كانوا مع النبي ﷺ ، حتى أنه عليه الصلاة والسلام في بدء الأمر لما سُئل عمّن أسلم معه قال : ((أسلم حر وعبد)) ؛ الحر أبو بكر والعبد بلال . وبدأ الإسلام يتزايد الداخلون فيه والمهتدون إليه ويتكاثر عددهم يوماً بعد يوم حتى دخل الناس في دين الله أفوجا ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [سورة النصر] .

فبدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا كما بدأ ؛ أي كما أنه بدأ غريب فستعود له غربته ، ثم ينتهي آخر الأمر عندما يبعث الله ﷻ ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى إلا شرار الخلق ((مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ)) ، و ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ)) ؛ ينتهي الإسلام ولا يكون له وجود، فيبدأ أمر الإسلام إلى الغربة ثم بعد ذلك تُرسل الريح التي تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق عند الله ﷻ وأولئك الذين تقوم عليهم الساعة .

فالإسلام بدأ غريباً وسيعود غريبا ، وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام -وهذا أهم أمر في هذا الموضوع- بعودة الإسلام غريباً ثم قوله ((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) كما سيأتي ماذا يعني هذا ؟ يعني حض الناس ودعوتهم نصحاً منه ﷺ إلى مجاهدة النفس على الاستمساك بالدين في كل وقتٍ وحين ولاسيما وقت الغربة ، ولا يستوحش الإنسان من قلة السالكين ولا يغتر أيضا بكثرة الهالكين ، بل يجاهد نفسه على الاستمساك بدين الله تبارك وتعالى، فإخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعوْد الإسلام غريبا كما بدأ هذا جاء على وجه النصيحة للناس أن يحرصوا على الاستمساك بدينهم والمحافظة عليه في كل وقت وحين ولاسيما عندما يكون الإسلام غريباً فتكون المحافظة عليه أمرها أشد ، والاعتصام به أمره أعظم .

قال : ((**وقول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾**)) ؛ هذه الآية ساقها المصنف مشيراً بها إلى معنى الغربة الذي جاء إشارة إليه وذكر في القرآن ؛ وهو أن يكون أهل الحق المستمسكين به الداعين إليه قلائل بين خلقٍ كثيرين ، ففي الآية إشارة إلى هذا المعنى ولفت انتباهٍ إليه وبيانٌ لعظيم ثواب من كانوا كذلك ، ففيها إشارة إلى فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ .

وقوله ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي : هلَّا وُجد من أهل القرون الماضية ، ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ يعني بقايا ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ حال كثرة الفساد وانتشاره وكثرة الدعاة إليه ينهون عن الفساد في الأرض ؛ بقايا من أهل الخير والفضل أهل الدعوة إلى الله والنصح لدينه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ ولينتبه هنا إلى لفتة مهمة في الآية : أن الدعوة إلى الله ﷻ كما أنها أمرٌ بالمعروف فهي نهيٌ عن المنكر ، النهي عن المنكر جزء من الدعوة إلى الله ﷻ ، خلافاً لما يتوهمه بعض الناس أن في الأمر بالمعروف كفاية ويقولون يُؤمر الناس بالمعروف وإذا نُشر فيهم المعروف زال المنكر ؛ هذا فهمٌ خاطئ ، بل النهي عن المنكر لزيم وقرين الأمر بالمعروف ، فالأمر بالمعروف مطلوب والنهي عن المنكر مطلوب ، والأمر بالمعروف يكون بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا يكون بالمنكر ، بل لابد من الاعتدال في الأمر والنهي ، ويكون ذلك على وجه النصيحة للعباد ودلالاتهم على الخير وإنقاذهم من الشر والفساد .

قال : ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ والمراد بالفساد في الأرض : أي بالمعاصي والذنوب واتباع الأهواء والشرك بالله ﷻ ، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] أي بعد أن أصلحها الله ﷻ ببعثة الأنبياء. ولك أن تتأمل هنا الجهود العظيمة التي بذلها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في نشر الدين الصحيح والمسلك القويم والصراط المستقيم وصحابته معه ثم أنصار الدين من بعدهم من التابعين وأتباعهم ؛ كم جهود بُذلت وأوقات بذلت في سبيل نصرة الدين ؟ إذا تأملت ذلك تدرك الجناية العظيمة التي يرتكبها أئمة الضلال ودعاة الباطل وأهل الأهواء ؛ يفسدون في الأرض بعد أن أصلحها الله ﷻ ، فهذه جناية من أكبر الجنايات ووزر من أعظم الأوزار ، تُصلَح الأرض ببعثة الأنبياء ونصرة الدين والنهي عن الفساد ويصلُح حال الناس ويمشون في الأرض على السداد والاستقامة ثم يأتي بعد هذا الصلاح أقوام يفسدون الأرض ولا يصلحون!! فيكونون دعاة إلى الأهواء ، دعاةً إلى البدع والخرافات ، دعاةً إلى الضلال ، ينصرون البدع ويزهِّدون في السنن ، هذه جناية عظيمة ،

هذا فساد في الأرض بعد إصلاحها . والغرباء ضد هؤلاء ؛ الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ بدعوة الناس إلى الحق وتحذيرهم من الباطل والصبر على ذلك .

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ وهذا موضع الشاهد للغربة ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قلائل ، فهم الغرباء ، قد ذكر الله ﷻ ثوابهم وهو النجاة ، فالناجون هم وإن كانوا قلة ، الناجون هم وإن كانوا شخصاً واحدًا . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ فكانوا معتصمين بالله ثابتين على دينه دعاةً إليه إلى أن توفاهم الله ﷻ وهم على هذا الحال . أما من سواهم فما شأنهم ؟

قال : ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ؛ شغَلَهم الترف واللهو ومُتع الدنيا الزائلة وشهواتها الفانية وملذاتها المنقضية ، انشغلوا بها عما خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه .

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: أي كانوا أهل إجرام ؛ أجرموا في حق أنفسهم وأجرموا في حق الناس وأجرموا في حق الأرض التي خلقهم الله ليمشوا عليها ؛ فكانوا يمشون على هذه الأرض التي خلقهم الله ﷻ ليكونوا عليها صالحين فتحولوا إلى أناسٍ يمشون على الأرض مفسدين ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢] ؛ فكانوا مجرمين في حق أنفسهم وفي حق الناس وفي حق الأرض إفساداً وتخريباً وتغييراً وضياعاً وانحرافاً وزيغاً ، هذا شأن أكثر الناس، وقلائل الذين اعتصموا بالله تبارك وتعالى فهداهم الله إليه صراطاً مستقيماً ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران :١٠١] .

الشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إشارة إلى حال أهل الغربة وعظيم ثوابهم عند الله تبارك وتعالى ، وأن النجاة لهم، وما سواهم فهم أهل هلكة ، قد مر معنا قريباً قول مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح؛ فمن ركبها نجا ومن تركها غرق» ؛ من ركبها نجا ولو كان واحداً ، وهذا يفيد الإنسان أن لا يغتر بكثرة الهالكين ولا يستوحش من قلة السالكين، بعض الناس إذا عرف السنة وفهِمها واقتنع بها وقامت عنده دلائلها وبراهينها الصحيحة الثابتة ثم ذهب إلى أهله ووطنه ووجد نفسه وحيداً في هذه السنة ومن حوله على خلافها يستوحش ، وربما ترك بعضهم السنة بسبب الاستيحاش ، وتجده لا يراقب الله وإنما يراقب الناس ماذا قالوا عنه ؟ وأي شيء يقولون عنه ؟ فتجده مع شدة مراقبته للناس يترك السنة وهو مقتنع بها ، وربما يكون أمره أشد من أولئك الذين جهلوها ؛عرفها واقتنع بها وقامت دلائلها عنده ولكنه يدعها ولا يستمسك بها التفاتاً إلى حال أكثر الناس الذين هم على خلافها وعلى نقيضها ، وربما بعضهم أيضا من هذا القبيل يشاركهم في اجتماعاتهم المحدثة الباطلة ويمارسها معهم عن غير قناعه من باب "حتى لا يقال" ، وحتى لا يكون وحيداً فريداً ، وحتى لا يُنتقد إلى آخره . فالأمر يحتاج من الإنسان إذا عرف الحق أن يلزمه وأن يستعين بالله تبارك وتعالى حتى لو وجد نفسه في وطنه وبين أهله غريباً ليس أحد على

شيء مما هو عليه ؛ يصبر ويعتصم بالله ويسأل الله تبارك وتعالى العون والثبات والهداية والسداد وأن يهديه وأن يهدي به وأن يهدي له وأن ييسر الهدى له ، يسأل الله تبارك وتعالى ذلك ويلح عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ وهو على هذه الحال .

قال :

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : ((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) رواه مسلم .

****

قال : ((**وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً**)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا**)) ؛ بدء الإسلام غريباً من الابتداء ، ولهذا ذكر ما يقابل ذلك وهو العوْد ، بدأ من الابتداء ثم بعد ذلك سيعود إلى الغربة .

ومعنى بدأ غريباً : أي ابتدأ الإسلام في الناس غريباً لا يعرفه أحد ، وعرفنا أن بدأه كانت على يد رسول الله ﷺ ، صفى الله وخليله صلوات الله وسلامه عليه ، فبدأ الإسلام غريبًا ، ثم تبعه قلائل من الناس أو أفراد كانوا في أول الأمر يُعَدّون على أصابع اليد الواحدة ، ومن على وجه الأرض كلهم ينكر ذلك ،كلهم يرى أن ذلك ضلال ومنكر وأن الحق ما هم عليه وما عليه آبائهم ، بدأ غريباً ثم كتب الله ﷻ له ظهوراً ورفعة وعلواً ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:٣٣] ، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه سيعود غريباً كما بدأ ؛ وهذا ابتلاء من الله ﷻ وامتحان لعباده ، ولهذا نبَّه شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله –كما في مجموع فتاواه في المجلد الثامن عشر في رسالةٍ فيها شرح لهذا الحديث– إلى أن عود الإسلام غريباً لا يعني تركه ، وإنما عود الإسلام غريباً يعني قوة مجاهدة النفس على الاستمساك به ؛ إذ الأمر يحتاج إلى قوة مجاهدة ، فليس الإخبار عن عود الإسلام غريبًا يعني ترك الإسلام ، لأن هذا الذي يتبادر إلى حال كثير من الجهلاء ؛ إذا كان الإسلام غريب وليس عليه أحد تجد كثير من الناس يقول أنا مع الناس حالي حالهم ، ((لا يَكُونُ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً)) يكون حاله من حال الناس ، ما يرى الناس عليه يمضي عليه لا يريد أن ينفرد ، وربما بعضهم عبّر بـ"لا أريد أن أكون شاذاً" .

فقوله : ((**وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا**)) ؛ هذا فيه دعوه إلى شدة الاستمساك به وشدة مجاهدة النفس على المحافظة عليه لا أن يُترك الإسلام ، والنبي ﷺ أخبر بذلك ناصحا من أجل أن يزيد الإنسان في مجاهدة لنفسه على حفظ الإسلام والمحافظة عليه .

قال : ((**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**)) ؛ قيل «طوبى»: الثواب العظيم ، وقيل الجنة ، وقيل الحسنى ، وقيل أقوال عديدة وكلها صحيحة ، لأن طوبى موعود عظيم لله ﷻ يتناول كل خير في الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:٢٩] ، فلهم عظيم موعود الله ﷻ وكريم نواله في دنياهم وأخراهم، وليس هذا ثوابٌ يختص بالأخرى بل كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣] أي في دورهم الثلاثة ؛ نعيم في الدنيا ، ونعيم في البرزخ ، ونعيم يوم القيامة عندما يلقون الله ﷻ .

قال: ((**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**))؛ من هم ؟ هم الذين يستمسكون بالإسلام حال غربته ، وعندما يكون الإسلام في نفسه غريباً بين الناس – أي قلائل من الناس الذين يعرفونه – فإن المستمسكين به في هذه الحال يكونون غرباء ، ويكون المستمسك به غريبا ولو كان بين أهله ، ولو كان المجتمع الذي ولد فيه ونشا وترعرع فيه.

ثم أورد رحمه الله روايات للحديث فيها تفسير من هم الغرباء ، والذي رواه مسلم من الحديث هو هذا القدر بدون هذه الزيادة ، وقد جاء في أحاديث أخرى عنه صلوات الله وسلامه عليه تفسير الغرباء من هم؟ ما صفتهم؟ ،وهذا التفسير يعين المسلم المتأمل في هذه الأحاديث على تحقيق المعاني والصفات التي عليها أهل الغربة .

قال :

ورواه أحمد من حديث ابن مسعود ﷺ **وفيه : ((قيل مَنْ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ)) ، وفي رواية: ((الْغُرَبَاءُ : الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ، ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص** ﷺ **وفيه : ((فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) . وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده: ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي)) .**

****

هذه روايات ساقها المصنف رحمه الله للحديث فيها تفسير وبيان للغرباء ، من هم الغرباء ؟ ، وهذه الروايات اعتنى من قبل أهل العلم بجمعها في مصنفات لما في ذلك من فائدة للمسلم ولطالب العلم ، لأن النبي ﷺ قال ((أن الإسلام سيعود غريباً)) ، وقال ((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) فالناصح لنفسه يتساءل من هم الغرباء؟ ما صفتهم؟ ما حليتهم؟ ما أعمالهم؟ يتساءل عن ذلك ليكون محافظاً وليكون مستمسكاً ، فكتبوا في ذلك كتابات نافعة جداً ، ومن أحسن ما كُتب في ذلك : كتاب الآجري رحمه الله وهو مطبوع ، وكتاب الحافظ بن رجب رحمه الله وهو مطبوع «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» ؛ رسالة صغيرة وضمّنها فوائد في وصف حال الغربة ووصف حال الغرباء ، واعتنى بها في حديثٍ عن هذا الأمر ساقه مبني على الأدلة وعلى كلام أهل العلم وعلى نقل الآثار عن سلف الأمة .

لأن الحديث عن الغربة أحياناً يخلط فيه الناس وتجد بعض من ابتُلي بشيء من الأهواء يوظّف أحاديث الغربة لنصر هواءه ؛ وهذا أيضاً من المصائب وتأييد باطله أو فكره أو نحو ذلك ، وهذا مضرٌ بالناس ، لأن أحاديث

غربة الدين إذا وُظفت في أهواء معيّنه فهذا أيضاً من الخطورة بمكان على عوام الناس وجهالهم . وقد كان سَنن السلف رحمهم الله في هذا الباب هو الحديث عن الغربة وبيان معانيها على ضوء الآيات والمأثور عن السلف ، لا أنهم يُقحمون تصوراتٍ يفهمونها أو أفكار يصِلون إليها ثم يجعلون أحاديث الغربة متنزّلة عليها ؛ فهذا إشكال وإضرار بالناس في فهم أحاديث الغربة ، وأحاديث الغربة تُفهم على جادة السلف رحمهم الله وعلى ضوء الروايات التي وردت عن النبي ﷺ في بيان الغرباء وحالهم ، تُفهم الغربة من حال السلف وأعمالهم وصفاتهم وسَنن الصحابة ومن اتبعهم بإحسان والنهج الذي كانوا عليه ، والدين الذي كان عليه الصحابة هو الدين إلى قيام الساعة ، «وما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديننا إلى قيام الساعة» .

الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وهو مطبوع كما قدمت قال : «معناه والله أعلم أن الأهواء المضلة تكثر – أي في الناس– فيضل بها كثير من الناس ، ويبقى أهل الحق الذين هم على شريعة الإسلام غرباء في الناس» ، هذا تفسير ذكره الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وأشار فيه أن الغربة تكون عندما تُتبع الأهواء ويكون للأهواء دعاة فتفشو في الناس وتنتشر ثم يبقى قلائل من الناس مستمسكين بالسنة غير مغترين بالأهواء والبدع ولا ملتفتين إليها ؛ فيكون حالهم حال أهل الغربة ويكونون هم الغرباء ((الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ؛ يصلحون : أي بتمسكهم بالسنة ، إذا فسد الناس : أي بإتباعهم الأهواء . وهذا معنى الحديث الآتي.

ساق المصنف رحمه الله روايات فيها تفسير للغرباء من هم ؟

الرواية الأولى : ((**قَالَ: النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ النزاع : من ينزع من وطنه إلى وطن آخر ، وما سبب هذا الرحيل والانتقال من الوطن ؟ يرى أن وطنه وأهله وعشيرته وقومه والمجتمع الذي نشأ فيه مجتمعٌ عم فيه الفساد وكثُر فيه الشر وكثر فيه الضياع ، ويكون قلبه خائفاً على دينه مشفِقاً على دينه ، يريد لدينه حفظاً وبقاءً ، ويجد المجتمع الذي حوله بدءً ببيته وبيت جيرانه والبيوت التي حوله والناس الذين يمشون حوله يجدهم في ضياع ؛ إما أخذتهم الشهوات مأخذاً عظيماً ، أو تلقفتهم الشبهات فحرفتهم عن دينهم ، أو جُمع لهم بين الأمرين : شهواتٌ أفسدت أعمالهم وشبهات أفسدت عقائدهم وأديانهم ، فيعيش في مجتمع هذه صفته فيرحل .

قال: ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ والمراد : الفارُّون بدينهم ، ينزع من قبيلته، يرحل ، يغترب ، يترك الوطن والأهل والأولاد والقرابة فراراً بدينه ، يبحث عن مكانٍ يبقى ويجاهد نفسه فيه على سلامة دينه ، ويجد نفسه في بقاءه في مجتمعه الذي أنكَر دينه فيه بقاؤه يترتب عليه ضعف دينه ورقته ، فيريد علماً ، يريد أهل علم ، يريد أهل صلاح واستقامة يصبر نفسه معهم ويجالسهم ليحافظ على دينه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف:٢٨] ؛ أمره ﷻ بالصبر ثم قال في تمام الآية: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ، فيكون راحلاً للبحث عن وطنٍ يجد

فيه قرار دينه وزيادة إيمانه وقوة يقينه وحسن صلته بالله وفقهه في دين الله ، هؤلاء هم النزاع من القبائل؛ يستنكر دينه في وطنه ويجد أموراً عمت وطمت في وطنه ليست من دين الله ؛ إما شبهات منحرفة أو شهوات متبَعة والدين في ضياع ، فينزع أي يرحل بحثًا عن دينه .

قال: ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ هذا أحد الأحاديث الذي ورد في تفسير الغرباء – وهو من أصح ما ورد في هذا الباب – يعني الذي يرحل من بلده ويتحمل عناء الغربة . الإنسان إذا كان بين أهله وقرابته وجيرانه أموره المعيشية أهون ، لأنه قد يذهب إلى بلادٍ يصعب عليه أمر المعاش فيها وربما يتعسر عليه أمر المعاش فيها ويجد معاناةً في هذا الباب فلا يبالي ولا يهتم ؛ لأن أمر دينه أهم وصلاح دينه ألزم عنده فلا يبالي بذلك ، قال ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) وهذا يدل على أن أعظم شيء استحكم في قلوبهم العناية به والاهتمام هو دينهم ؛ ولهذا لا يبالي، يرحل ويغترب ويترك الوطن مع حبه له ، والأهل مع حبه لهم وحرصه عليهم ، يرحل في سبيل حفظ دينه . قال: ((**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**)) ؛ هذه رواية وفيها تفسير للغرباء .

قال : ((**وفي رواية: الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)) ؛ يصلحون : أي بالتمسك بالسنة والدين الصحيح . والصلاح يكون بتعلم الدين ومعرفته والمحافظة عليه ، مثل ما مر معنا قريباً في كلام أبي العالية الرياحي العظيم ؛ فيكون ذلك بإصلاح النفس بتعلم الدين والمحافظة عليه والثبات عليه إلى الممات .

((**إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)) أي : بإتباع الأهواء وإتباع الشهوات ، فيكون الناس اهتماماتهم متجهة إلى أهوائهم أو جرفتهم الشبهات وحرفتهم عن دينهم ، ويكون هو صالحاً في وسط هذا الفساد .

قال : ((**ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص** ﷺ **وفيه : فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**)) ؛ وهذا بمعنى الرواية التي قبلها ، طوبى للغرباء : أي أهل الصلاح ، ولم يُذكر لدلالة السياق عليه .

قال : ((**وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي**)) ؛ وهذا المعنى دلائله كثيرة وشواهده عديدة ، ومن شواهده الآية التي صدّر بها المصنف رحمه الله الترجمة ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ ينهون عن الفساد في الأرض أي : بالإصلاح فيها وإنكار المنكر وإنكار الفساد ، وهذا المعنى شواهده كثيرة جدًا ، والآيات التي فيها فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والأحاديث الواردة في هذا الباب كلها شواهد على هذا المعنى .

فهذه المعاني التي ذكر المصنف : «**النُّزَّاعُ مِنْ الْقَبَائِلِ**» ، «**الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**» ، «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**» كلها صحيحة ، وكلها أوصاف صحيحة لأهل الغربة جُمعت في سورة العصر ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ﴾ ؛ فجمعوا بين صلاحٍ في أنفسهم ، وجدٍّ واجتهاد في إصلاح مجتمعهم ، وصبر على ذلك وما ينالهم من أذىً فيه ، وقد جاء عن الشافعي رحمه الله أنه قال : « كفى بهذه السورة حجة على الناس» لأنها جمعت الأوصاف التي يكون بها السلامة من الخسران ، لأن من سوى الغرباء في خسران ، متفاوتين في حجم الخسران الذي هم عليه ، ولا ينجو ولا يسلم إلا الغرباء ، والغرباء السالمون من الخسران هم أهل هذه الصفات المذكورة في سورة العصر.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته التي في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاواه أن الغربة قد تكون في بعض شرائع الدين وقد تكون أيضاً في بعض الأمكنة ؛ يعني تذهب إلى بلد من بلدان المسلمين وأنت تعرف أن هذا البلد كان من منارات الإسلام ومن البلدان التي كثر فيها العلم والعلماء وكان لهم قوة ونشاط ، وتقرأ أحياناً بعض الكتب المختصة بتراجم أهل العلم من أهل بلدان معينة ، ثم تذهب إلى ذلك البلد فترى غربة ، وترى الذي انتشر في الناس أموراً خلاف الدين ، فالغربة قد تكون في مكان وقد تكون في أعمال ؛ يعني تجد أعمال من الدين غريبة بين الناس . ولعله يلاحَظ أن بعض الناس قد تُذكر له سنة من السنن فيسمع بها أول مرة فيستغرب ، وربما ذُكرت السنة لجماعة من الناس فيستغربونها أجمعين ، وربما حلفوا قالوا والله ما سمعنا بهذا من قبل ، وهي سنة ثابتة عن النبي ﷺ!! لكنها أصبحت غريبة بين الناس بسبب قلة العلم وضعفه ودروسه بين كثير من الناس .

فالغربة قد تكون في مكان؛ بحيث إذا بقي الإنسان في مكان يجد غربة وإذا انتقل إلى مكان آخر لا يجد غربة بل يجد أمثاله من أهل السنة المحافظين عليها كثير ، وأحيانا تشتد الغربة في الأمكنة حتى جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : «إذا بلغك عن رجل في أقصى المغرب وهو من أهل السنة فابعث إليه بالسلام» ، فقد تشتد الغربة وقد يكون في وطنه وحيداً .

على كلٍّ هذه أوصاف جاءت في روايات الأحاديث في وصف الغرباء ، وما ذكره المصنف هنا هو أصح ما ورد في الباب ، وقد جاءت أحاديث أخرى في تفسير الغرباء فيها ما هو أسانيده ضعيفة وفيه ما أسانيده واهية جداً .

قال :

وعن أبي أمية قال : سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ ﷺ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ؟ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيهِنّ مِثْلُ القَابِضِ عَلَى

الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكم)) ، قلنا: مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : ((بَلْ مِنْكُمْ)) رواه أبو داوود والترمذي .

****

قال رحمه الله : ((**وعن أبي أمية قال : سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ ﷺ **كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟**)) ؛ قد يفهم بعض الناس عندما يقرأ هذه الآية أن المراد بها أن اشتغال الإنسان بإصلاح نفسه فقط دون اجتهادٍ منه في إصلاح من حوله يكفيه ولا يضره. ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ أي إذا صلحتَ في نفسك واستقمت ليس عليك في الناس من صلح منهم ومن استقام ؛ وهذا مفهوم خاطئ وليس هو مراد الآية .

لأن قوله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ من الهداية التي لا يضر الإنسان إذا ضل الناس إذا كان هو مهتدياً ، من الهداية المطلوبة: الدعوة والأمر والنهي ، وهي من هدايات القران وهدايات السنة ، وهي هداية مطلوبة من العبد ؛ فتركه لها ترك لجزء من الهداية ؛ لأن الأمر والنهي هداية ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] ؛ فالأمر والنهي جزء من الهداية وهو داخل فيها . فقوله ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ من الهداية : الأمر والنهي والدعوة إلى دين الله تبارك وتعالى ؛ هذا من وجه .

ومن وجه آخر : أن دعوة صاحب الحق إلى الحق من وسائل حفظ الهداية التي عنده ، وقد قيل : «إذا لم تدعو تُدعى» ، فدعوة الإنسان إلى الحق الذي منّ الله ﷻ عليه به فيه حفظٌ للهداية التي أكرمه الله ﷻ بها ، فمن وسائل حفظ الهداية في الشخص أن يدعو الناس إليها ، وإن لم يكن كذلك أصبح هدفاً لدعوة الناس ومستهدفاً من دعاة الضلال .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ سأله عن هذه الآية كيف يقول في معناها ؟ قال : ((**أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا**)) ؛ ولم يقل ذلك تزكيةً لنفسه ، وإنما قالها ليُطمئن سائله بالعلم الذي أكرمه الله ﷻ به في هذا الأمر ، فإذا قال الإنسان في مسألةٍ ما أو في موضوع ما "هذه المسألة أنا عندي خبرة بها درستها شهور مثلا " هذا لا يكون تزكية ؛ إلا إذا أراد في نيته تزكية نفسه ولاحظ الرياء والشهرة وهذه المعاني ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ، أما إذا كان مقصوده النصح للناس وطمأنة قلوبهم لتحصيل الفائدة فهذا ليس من التزكية .

قال : ((**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ** ﷺ)) ؛ ولاحظ الخبرة التي عنده في هذه المسألة علمٌ بالسنة ، مما يبين لك أن علم الصحابة هو هذا ، ولو لم يكن عنده هذا السؤال لما قال سألت عنها خبيرا ، ومن

الناس من لا يكون عنده علم بالسنة ويعدّ نفسه خبيرا ؛ فيخوض في كلام الله وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام بغير علمٍ وغير فهم .

قال : ((**سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ**)) ؛أي ليس معنى قوله ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليس هذا مراد الآية بل مراد الآية : ((**بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ**)) .

((**حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**))؛ يعني يلزم الإنسان شأن نفسه في مثل هذه الحال ؛ ما هي ؟

قال أولا : ((**إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا**)) ؛ والشح : هو بخل الإنسان الذي ملأ قلبه وأصبح في سيره في حياته أسير بخله ، يطيع بخل نفسه ولم يوق شح نفسه بل أصبح مطيعاً لما امتلأ به قلبه من البخل . ومن كان بهذه الصفة لا يلتفت إلا إلى بخل نفسه وشحِّها أين أذنه التي ستسمع وستصغي وقد سيطر على قلبه شحُّه وبخله ؟!

((**وَهَوًى مُتَّبَعًا**)) أيضا سيطر عليه أمر آخر وهو إتباع الأهواء ، تجارت به الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه ، فرمَته في أودية الضلال ومواضع الهلكة .

((**وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً**)) ؛ اهتمام الناس منصرف إلى الدنيا ليس لديهم اهتمام بالدين وليس عندهم وقت للدين والعناية به. دُنْيَا مُؤْثَرَةً يعني آثرتها القلوب وأقبلت عليها النفوس .

((**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ**)) ؛ يصبح أصحاب الآراء كلٌّ منهم معجَب برأيه ، وإذا بُيِّنت له السنة أنكرها لمخالفتها لرأيه ، وهو معجب برأيه فينكر السنة لكونها مخالفة لرأيه .

((**وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**)) ؛ والله ﷻ يقول : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾[الأعلى:٩] ، فإذا صار الإنسان في حال يصل فيها من حوله بهذه الصفات قال: ((**فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ**)) يعني دع عنك خلطتهم ، الزم نفسك بالحفظ لدينك والمحافظة عليه ومجاهدة النفس على الاستقامة عليه .

((**وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيهِنّ** -أي على دينه- **مِثْلُ القَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**))؛ لأن القابض على الجمر يحس بألم من قبضه على الجمرة ، وكذلك المحافِظ على الحق يجد مثل هذا الإحساس من شدة العنَت والخصومة وإنكار الناس له وتسفيههم له وطعنهم فيه إلى غير ذلك ؛ فيكون فيها كالقابض على الجمر لاستحكام أو لشدة الغربة التي يعيشها بين الناس .

قال: ((**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكم**)) ؛ فأراد الصحابة الاستفصال عن قوله ((**مِثْلَ عَمَلِكم**)) هل المراد مثل عمل الصحابة؟ أو مثل عمل من جاء بعدهم ؟

قال: ((**قلنا مِنَّا**- أي الصحابة - **أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ بَلْ مِنْكُمْ**)) ؛ أي من الصحابة .

قال أهل العلم وذلك لأن هؤلاء الذين بهذه الصفة غرباء ينصرون الدين وهو متجه إلى مزيد من الغربة ، والصحابة نصروا الدين وهو متجه إلى الخلاص من الغربة ، وكل يوم والإسلام يحقق انتصارات وعزاً ورفعة وكثرة داخلين فيه . وأيضا نبّه العلماء أن هذا لا يعني تفضيلهم على الصحابة ، بل ما حازه الصحابة من السبق ونصرة النبي عليه الصلاة والسلام ولزومه وأخذ الدين عنه فهذه أمور لا يقارنهم فيها من جاء بعدهم ، قد قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: ((لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)) ، فالأمر الذي حازه الصحابة والفضائل التي حازها الصحابة هذه لا يلحقهم فيها أحد ممن جاء بعدهم ، فالصحابة لهم فضل مخصوص لا يناله من جاء بعدهم . فقوله ((**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا**)) لا يعني تفضيل هؤلاء على صحابة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال :

وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : ((إن من بعدكم أياماً الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم)) .

****

ثم أورد هذه الرواية عند ابن وضاح في كتابه «البدع والنهي عنها» وهو مطبوع قال : **وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : ((إن من بعدكم أياماً الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم))** ؛ وتأمل هنا وصفاً للغرباء قال : **((المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم))** ؛ فالغريب هو الذي يتمسك بمثل ما كان عليه الصحابة ، وهذا المعنى دل عليه قول النبي ﷺ وقد تقدم عندما ذكر الافتراق قال: ((كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)).

قال :

أنبأنا محمد ابن سعيد قال أنبأنا أسد قال أنبأنا سفيان ابن عيينه عن أسلم البصري عن سعيد أخي الحسن يرفعه قلت لسفيان : عن النبي ﷺ ؟ قال نعم ، قال : ((إنكم اليوم على بينة من أمركم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله ولم تظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل، وسكرة حب العيش ، وستَحوَّلون عن ذلك ولا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان ، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين قيل منهم؟ قال : لا بل منكم)).

****

ثم أورد هذه الرواية التي ساقها ابن وضاح بسنده عن سعيد أخي الحسن البصري يرفعه أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو مرسل ؛ سعيد أخي الحسن إلى النبي ﷺ هذا مرسل. قال : ((**قلت لسفيان عن النبي ﷺ ؟ قال نعم**)) .

قال : ((**إنكم اليوم على بينة من أمركم**)) ما هي هذه البينة ؟

قال: ((**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله، ولم تظهر فيكم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش**)) ؛ هذا الآن بيان لوصف الحالة التي كان عليها الصحابة ﷺ وبيان للدين الصحيح ، والدين الصحيح: هو ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته ، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله ، ولم تظهر فيهم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش .

((**سكرة الجهل وسكرة حب العيش**)) ؛ أن يمشي الإنسان في هذه الحياة في سكرة جهله يخوض فيما يخوض فيه من ضلال بسبب سكرة الجهل التي تسيطر عليه . وأيضا يخوض فيما يخوض فيه من شهوات بسبب سكرة حب العيش الذي سيطر عليه ، فهو بين سكرتين سيطرتا عليه : سكرة جهل وسكرة حب عيش ، فإذا وُجدت هاتان السكرتان لا تسأل حينئذ عن هلكة الإنسان ،جاهل ويحب الدنيا وهي أكبر همه !! ماذا ستكون حال من كان كذلك ؟ من سيطرت عليه هاتان السكرتان ؟

قال: ((**وستَحوَّلون**)) ؛ أي ستتغير الأمور تتبدل عن ذلك ، ماذا سيكون ؟ عكس المتقدم .

((**فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان**)) ؛ أي تفشو فيكم وتنتشر هاتان السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش .

ثم نصح النبي عليه الصلاة والسلام ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في مثل هذه الحال قال : ((**فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين . قيل منهم ؟ قال لا بل منكم**)) ؛ منكم : أي من الصحابة .

هذه الرواية وإن كان فيها ضعف فالمصنف لم يذكرها في هذا الباب اعتماداً وإنما ذكرها استئناساً لما فيها من معاني صحيحة ولما فيها من توضيحات ، فهي ليست كلاما يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولكنه كلام درج عند أهل العلم ، مثله مثل أقوال أهل العلم ، فهو فيه معاني صحيحة قوية مفيدة تفيد في تفسير هذا الباب وليست هي كلامًا للنبي عليه الصلاة والسلام ، لهذا جرت عادة العلماء ذكر ما لا يشتد ضعفه من المراسيل أو مثلاً فيه ضعف يسير أوفيه راوٍ ضعيفُ حفظٍ أو نحو ذلك ؛ يذكرونها على سبيل الاستئناس لا على سبيل الاعتماد .

ولو تأملت هذا الحديث ليس عمدة في هذا الباب ، العمدة في الباب مر ؛ آيات وأحاديث اتضح بها المقصود ولكن هذه روايات يُستأنس بذكرها لا أنها عمدة الباب ، وإذا تأملت المعاني التي فيها فشواهدها مبسوطة في الكتاب والسنة ، كم في القرآن من الأدلة الدالة على خطورة الجهل ؟ وكم في القرآن والسنة من الأدلة الدالة على خطورة حب الدنيا والتهالك ورائها والانشغال بها ؟ فهذا المعنى ليس معنىً العمدة فيه هذا الحديث ، وكذلك ترك

الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر وترك الجهاد ليس العمدة فيه هذا الحديث ، وإنما العمدة نصوص أخرى واضحة بيّنة ، فيكون ذكر هذا على وجه الاستئناس ، وأمثال هذه الأحاديث تُذكر للاعتضاد لا للاعتماد ، وتُذكر للاستئناس بها لا لكونها عمدة في الباب ، وهذا نهج معروف عند أهل العلم من قديم ، يذكرون أمثال هذه الأحاديث من مرسلٍ ضعيف أو فيه راوٍ خفيف الضبط أو فيه ضعف أو نحو ذلك للاستئناس بذكرها .

قال :

وله بإسناد عن المعافري قال : قال رسول الله ﷺ : ((طوبى للغرباء؛ الذين يمسِّكون بكتاب الله حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تُطفئ)).

****

وهذا مثل ما سبق ساقه المصنف رحمه الله ليستأنس بذكره ، لأن المعنى الذي فيه معنى صحيح في وصف الغربة .

قال : ((**طوبى للغرباء**)) من هم ؟

قال: ((**الذين يمسِّكون بكتاب الله حين يُترك ويعملون بالسنة حين تُطفئ**)) يعني يُطفئ نورها بين الناس ولا يكون للناس بها معرفة ، فإذا بلغ الناس هذا الحال ووُجد من هو متمسك بالكتاب والسنة فهو الغريب ، وهذا المعنى الذي دل عليه هذا الحديث في تفسيره الغربة دلت عليه النصوص المتقدمة .

هذه الترجمة عموماً ترجمة عظيمة جداً في بيان الغربة –غربة الدين– التي توجد في الناس بسبب كثرة الجهل وغلبة الأهواء والانشغال بالدنيا وحظوظ النفس والإعراض عن دين الله ﷻ ، وأورد المصنف رحمه الله فضل الغرباء الذين يتمسكون بالدين ويحافظون عليه ويدعون إليه حال تخلي أكثر الناس عنه وحال تفريط كثير من الناس به ، وأن فضلهم عند الله ﷻ عظيم وثوابهم جزيل ، قد ساق من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك ، وساق أيضا من النصوص تفسير الغرباء ومن هم الغرباء .

ولعلك تلحظ فيما ساقه المصنف وفي طريقته رحمه الله النهج الذي ألمحتُ إليه ؛ نهج السلف الصالح رحمهم الله ، فالمصنف شأنه كأئمة السلف لا يحْمِل فكراً أو رأياً أو تصوراتٍ ابتكرها وأنشأها ودعا إليها أو أخذ يدعو إليها ، وإنما دعوته إلى دين الله ﷻ ، ولهذا لما تكلم عن الغربة وفضلها ذكر تفسيرها بسوق الروايات التي تفسِّر لنا ما هي الغربة ، وترى في الناس من يأتي ويتحدث عن الغربة وغربة الدين ليوظفها لآرائه وأفكاره ويسوّد صفحات ٍكثيرة يبث فيها فكراً نشأ عليه أو رأياً درج عليه ثم يوظف الأحاديث ، هذه ليست طريقة أهل الحق . وانظر هذه الصفحة الواحدة التي سطرها المصنف رحمه الله في الكلام عن الغربة تغنيك عن مطولات ، لأنها جمعت خلاصة الأمر وزبدة الموضوع ، ففي باب الغربة يكفيك هذا الذي ذكره المصنف ، خلاصة وافية وكافية من جهة ذِكر

الغربة ووجودها ، وذِكر فضل الغرباء وثوابهم ، وذِكر أعمال الغرباء وصفاتهم ؛ كلها اجتمعت لك في هذه الخلاصة التي سطرها المصنف رحمه الله في صفحة واحدة .

وإذا قرأت أيضاً ما ساقه هنا لا تجد له فيه كلمة واحدة ، لم يذكر كلمة واحدة ، لو كان يحمل أراءً معيّنة أو أفكاراً معيّنة أو توجهات معيّنة لبثها في كتبه ؛ لكن ليس في كتبه إلا الآيات والأحاديث ؛ ومع ذلك يشن عليه دعاة الضلال ودعاة الباطل حملات شعواء يسألهم عنها رب العالمين يوم القيامة لصدِّهم عن دين الله وصدهم عن حملته من أئمة السنة ودعاة الحق والهدى ومن أصلح الله تبارك وتعالى بهم دينه جل وعز .

وهذا الإمام – أعني الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله– إمام من أئمة أهل السنة وداعية من دعاة الحق والهدى ، وكتبه التي صنفها كلها داعية إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قائمة على الآية والحديث والمأثور المروي من كلام السلف الصالح ، ثم كذبوا عليه وافتروا عليه كذباً يسأله عنه رب العالمين يوم القيامة، ورموه بعظائم لا يوصف بها أحاد المسلمين! حتى إن بعضهم قال إثما وزورا أنه لا يصلى على رسول الله ، وقال آخرون : لا يحب آل بيت رسول الله ، وقال آخرون.. وقال آخرون ؛ كلماتٌ ترمى هنا وهناك في الصد عن هذا الحق الذي يدعو إليه هذا الإمام .

ولهذا من وفقه الله ﷻ من هؤلاء فقرؤوا كتبه وجدوا كذب الدعايات التي بُثت والباطل الذي أشيع ، رجل ليس عنده في كتبه إلا النصح والدعوة لدين الله ﷻ ، ولهذا لما نقرأ الآن «فضل الإسلام» لهذا الإمام لا نرى له فيه كلام ، لو كان يحمل مذهباً خامساً أو يحمل فكراً أو يحمل كذا إلى آخره لبثه في كتبه ، وأولئك اكتفوا في حال هذا الرجل بدعاية بُثت بثها أعداء الدين من الكفار الأصليين ومن المنتسبين للدين من خصوم الدين وخصوم الدعوة ، لكن من وفقه الله ﷻ وقرأ ما كتبه من هذه الآيات وهذه الأحاديث لوجد حقاً .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا.

قال الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب التحذير من البدع

عن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَة وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) قال الترمذي حديث حسن صحيح .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**بابٌ التحذير من البدع**)) أي : ذكر الدلائل والشواهد الدالة على خطورة البدع وشدة ضررها على فاعليها وأهلها ، وأنها ليست من دين الله ﷻ ، وهي عبادة له جل وعلا بغير ما شرع وبغير ما أذِن به ﷻ .

وقد جعل المصنف رحمه الله هذا الباب خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام» ؛ منبهاً بذلك أن فضائل الإسلام العظيمة وخيراته العميمة لا تُنال بالانشغال بالبدع والأهواء وبالتعبد لله ﷻ بغير ما شرع ؛ وإنما تُنال بالاستسلام لله بما شرع وبما أذِن به ﷻ وبما بعث به رسوله عليه الصلاة والسلام ، فمن أراد لنفسه تلك الفضائل العظيمة المترتبة على حفظ الإسلام والمحافظة عليه فليحذر من البدع ، وهذا هو السبب الذي لأجله أورد المصنف رحمه الله هذا الباب وجعله خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام» .

والتحذير من البدع : أي ذكر ما يدل على وجوب الحذر منها والبعد عنها ومجانبتها ، والنصوص في هذا المعنى متكاثرة عن نبينا عليه الصلاة والسلام في تحذيره من البدع ؛ بل هو وصيته ﷺ لأمته كما في حديث العرباض بن سارية الذي ساقه المصنف رحمه الله في هذه الترجمة .

والبدع سبق الكلام على المراد بها عند ذكر قول النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، فالبدعة: هي التقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع وبما لا أصل له في الدين ؛ بما لم يأت في الدين الأمر به أمر إيجابٍ أو أمر استحباب ، فكل قربةٍ يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ لم يشرعها الله ولا أصل لها في دين الله ولا دليل عليها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فهي من البدع المحدثات ، حتى وإن حسُن قصد صاحبها ، حتى وإن رآها صاحبها حسنةً ، ولهذا روى محمد بن نصر المروَزي رحمه الله في كتابه السنة بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» ؛ أي أنه لا يشفع للإنسان استحسانه للبدعة ورؤيته لها أنها حسنة ، كذلك لا يشفع له إعجابه بها ، كل هذه لا تفيد ، فالبدعة ضلالة مهما كان مبرر الإنسان لها ومسوغاته فهي ضلالة ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) ، والنبي ﷺ أكد هذا المعنى مرات كثيرة ؛ بل كان عليه

الصلاة والسلام في كل جمعة يقرر هذا الأمر ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) ؛ ترسيخاً لهذا الأصل العظيم ليحذر الناس من البدع ، وهذا التأكيد المتوالي منه عليه الصلاة والسلام في بيان ضلالة البدعة وبطلانها لأن قلوب كثير من الناس تستهويهم البدع وتستميلهم . وقد يدخل بعضهم في البدعة من بابٍ حسن وهو باب حب الخير –كما سيأتي معنا في أثر ابن مسعود الذي ختم به المصنف رحمه الله هذه الترجمة– فقد يفعلها الإنسان من باب إرادة الخير والرغبة فيه والحرص عليه ؛ ولكن كما قال ابن مسعود ﷺ «ليس كل من أراد الخير حصَّله» ، الذي يحصل الخير ويفوز به هو من لزم سنة النبي ﷺ وأمَّرها على نفسه ، ولهذا قال بعض السلف : «مَنْ أَمَرَّ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَرَّ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ» ؛ الذي يجعل السنة هي المحكَّمة وعليها المعوَّل وإليها المرجع وهي المعتمد هذا ينطق بالحكمة ، أما الذي يطلق لهواه العِنان ويرخي له الزمام فإنه ينطق بالبدعة وتكون أفعاله وأعماله وممارساته هي البدع .

ثم إن هذا فيه تنبيهٌ إلى أن كون الإنسان من أهل السنة أو من أهل البدعة مرتبط بحقيقة عمله لا بمجرد دعواه ، إذ لا يكفي في هذا الباب ادِّعاء الإنسان أنه من أهل السنة ؛ بل لابد من وجود حقيقة هذه الدعوى بلزوم السنة ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «أهل السنة سموا أهل سنة لأنهم مظاهر ظهرت بهم السنة ، وأهل البدعة سموا أهل بدعة لأنهم مصادر صدرت منهم البدعة» ، ولهذا صاحب السنة وصاحب الحق يحتاج إلى مجاهدة لنفسه ليحذر من البدع فلا تستهويه ولا يستجِرنَّه الشيطان إلى حيث البدع ولا تستميله نفسه إلى أعمال لم يشرعها الله تبارك وتعالى ولم يأذن بها .

قال : ((**عن العرباض بن سارية ﷺ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) ؛ قوله «**وعظنا**» ؛ الموعظة : هي النصيحة المشتملة على ترغيبٍ وترهيب ، فإذا كان النصح فيه ترغيب بالفضائل وترهيب من الرذائل وذِكرٌ للثواب والعقاب فيقال لها «موعظة» ، ففيها ترقيق للقلوب وتليين للنفوس وتأثير بما اشتملت عليه من ذكرٍ للثواب وذكرٍ للعقاب . فيقول العرباض ﷺ :((**وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) ؛ وصف ﷺ هذه الموعظة بصفات ثلاث :

الأولى: بلاغة هذه الموعظة ؛ قال «**مَوْعِظَةً بَلِيغَةً**» ، والمراد بالبلاغة هنا : إيصال المقصود بالكلام الواضح الجلي البيّن دون أن يكون فيه تعقيد أو غموض ، كلمات بليغة : أي كلمات واضحة سهلة يسيرة الفهم مؤثرة .

قال: ((**وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) هاتان الصفتان الأخريان ؛ وجلت القلوب : أي أصاب القلوب منها وجل وهو الخوف من الله ﷻ والخوف من عقابه ولانت وتأثرت . وذرفت العيون : أي بالدمع ؛ سال الدمع منها متأثرةً بهذا الوعظ من النبي ﷺ .

وقد أخذ أهل العلم من هذا الحديث ونظائره : أهمية تخوُّل الناس بالموعظة بين الفيْنة والأخرى ؛ فلا يُتركون هكذا بدون وعظ ، ولا يكون أيضاً الوعظ هو كل حديثهم ، وإنما يُتخولون بالموعظة تليينا للقلوب وجلباً لها وطرداً

لغفلتها فيُذكَّرون بالثواب والعقاب ، فلا يُترك الناس بلا موعظة ولا أيضاً تكون الموعظة هي غاية ما عندهم في العلم فلا ينشغلون إلا بها ولا يجلسون إلا لها ، لأن القلوب إذا لانت بالموعظة ولم يُبيَّن لها العلم ربما انشغلت بالبدع لأن الموعظة أوجدت فيها رغبةً في الخير وحرصاً عليه ، فإذا وُعظ الإنسان ولم يُدَل على الحق والهدى بالعلم الصحيح المسدد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام أقبلت نفسه على العمل بلا علم ، قد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلِح». ولهذا ترك الناس بلا وعظ هذا خطأ، والاقتصار على الوعظ في تعليم الناس وحده هذا خطأ ، والصواب التخوّل بالموعظة بين الفينة والأخرى والوقت والآخر حسب حاجة الناس ، ويُنشغَل بالعلم وبيانه ودلالة الناس إلى السنن . وقد صار واضحاً في حال أقوام قصروا علمهم على الوعظ وحده أن جر ذلك إلى أعمالٍ وأمورٍ لم يأذن بها اللهﷻ، وقع فيها من وقع بسبب لين قلبه وشدة حرصه وعظيم رغبته ، وفي الوقت نفسه قلة علمه بدين الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولعل هذا الحديث يرسم للدعاة والمعلمين منهاجاً يُحتذى ومسلكاً يُسار على ضوءه ، فهو عليه الصلاة والسلام وعظهم فطلبوا منه الوصية ، يعني وصية يعملون بها إثر تأثرهم بهذه الموعظة ؛ فلم يُقتصَر عليها ، فأرشدهم إلى التقوى ، والسمع والطاعة ، والحرص على السنة ، والحذر من البدع ؛ أوصاهم عليه صلوات الله وسلامه بهذه الوصايا العظام التي هي من العلم النافع بل هي أساس العلم الذي يُبنى عليه وتبنى عليه الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات .

قال : ((**قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)) ؛ ولعل هذا الحديث كما أشار بعض شرَّاحه كان في أواخر حياته ﷺ ، وكأن الصحابة أحسوا بقرب توديعه ودنو أجله عليه الصلاة والسلام فأرادوا أن يعهد إليهم بوصية وتكون هذه الوصية جامعة لأبواب الخير مقرِّرة لأصوله وقواعده فقالوا : ((**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ**)) ، وليس هناك جزم وإنما وُجد عندهم شيء من الإحساس بذلك فقالوا : ((**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)) .

ووصية المودِّع سواء كان مسافراً وودع أهله وقرابته ولاسيما إن كان السفر الذي يقصده طويلاً، أو كان أيضا مسافراً السفر الذي لا عودة بعده إلى أهله وهو إلى الدار الآخرة ، إلى الله ﷻ ، بمعنى أن يحس أن منيَّته دنت وأجله اقترب ، فتجد وصية من كانت هذه حاله أبلغ وأجمع وأوعب ، وقد كان من سنن الأنبياء وهديهم عند دنو الأجل العهد لذويهم ولعموم الناس بالوصية ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] هذه وصية من يعقوب ومن إبراهيم عليهما صلوات الله وسلامه ، والله ﷻ سماها وصية ، والوصية هي قولهما : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، والعادة في الوصية أن يكون فيها كلام قليل جامع لأبواب الخير لا يُنشغل فيها

بالتفاصيل إلا عند الحاجة للتفصيل ، أما الأصل فيها أن تكون مشتملة على كلمات قلائل جامعة للخير ويفصَّل عند الحاجة ، ولهذا كان يأتي في وصايا بعض السلف شيء من التفاصيل يقتضيها المقام أو يحتاج إليها ؛ مثل قول بعضهم في وصيته : " إني أبرأ من كل حالقة وسالقة ونائحة" إذا خشي أو وُجد في مجتمع الإنسان من البدع التي تُمارس في حق من مات ، و ((الْمَيِّت يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ)) قال أهل العلم : إذا كان مُقِراً لذلك راضياً به أو داعياً إليه ، فمثل هذه الوصايا التي هي نوع من التفصيل تأتي للحاجة ؛ وإلا فالأصل أن تكون الوصية تجمع ؛ يعهد إليهم بحفظ الإسلام والمحافظة عليه ، يعهد إليهم بلزوم تقوى الله ﷻ في السر والعلانية ، يعهد إليهم بالتحذير من الأهواء واتباع حظوظ النفس والشهوات ، إلى غير ذلك من الأصول الجامعة والكليات والقواعد .

((**قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ** ﷻ))؛ استهل صلوات الله وسلامه عليه وصيته الجامعة هذه بالوصية بتقوى الله ﷻ، وتقوى الله ﷻ هي وصيته ﷻ للأولين والآخرين من خلقه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[النساء:١٣١] ، وهي وصية الرسول ﷺ لأمته ، وهي وصية السلف الصالح رحمهم الله فيما بينهم.

وتقوى الله : هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه . الذي يشعر ببردٍ يتقيه بملابس الشتاء ، الذي يخشى الشمس يتقيها بمظلة ، والذي يخشى عقاب الله ﷻ وسخطه يجعل بينه وبين هذا العقاب والسخط شيئاً يقيه منه . تقوى الله : هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه وذلك بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الأخبار . وأي إخلالٍ بشيء من هذه الثلاث نقص في تقوى الله ﷻ ، ولا تتحقق هي إلا بهذه الأمور : أن يفعل العبد ما أُمِر به ، وأن ينتهي عما نُهِي عنه ، وأن يصدِّق الأخبار الواردة عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ومن أجمع ما قيل في حد التقوى : قول طلق بن حبيب رحمه الله وهو من علماء التابعين عندما سألوه عن الفتنة التي حصلت كيف الخلاص منها ؟ قال : «اتقوها بالتقوى» ، فقالوا له : أجمِل لنا التقوى ؟ اذكر لنا تعريفاً مجملاً جامعاً لتقوى الله ﷻ . فقال رحمه الله : «تقوى الله : هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله» . وهذا التعريف للتقوى هو من أحسن ما قيل في حدها ، وقد أثنى على هذا التعريف جمع من أهل العلم؛ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه العلامة ابن القيم، والذهبي ، وابن رجب، وآخرين من هل العلم . وقد جمع رحمه الله في تعريفه للتقوى بين فعل الأمر وترك النهي وفي كل منهما أن يكون الإنسان على علم ، فقوله «على نور» أي على علم ؛علم بالمأمور ليفعله وعلم بالمحظور ليجتنبه ، ثم الجمع في ذلك بين الرجاء والخوف ؛ يفعل ما أمره الله ﷻ راجياً ثوابه ، ويجتنب ما نهاه الله ﷻ عنه

خائفاً من عقابه ، ففيه إحسانٌ في العمل يرجو ثواب الله ﷻ ، وبُعدٌ عن الإساءة يخاف من عقابه ﷻ وسخطه .

وبهذا يُعلم أن تقوى الله ﷻ ليست مجرد دعوى يدّعيها الإنسان ؛ لأنه من اليسير على كل إنسان ومن السهل على كل لسان أن يقول إنني من المتقين ، فالدعوى أمرها سهل ولكن العبرة بتحقيق التقوى والقيام بحقيقتها ؛ ذلاً وخضوعاً لله ﷻ ، وقياماً بطاعته ، وبُعدًا عن نواهيه ، ومعرفةً بعظمته جل وعلا وقدرته واطلاعه ، وأنه لا تخفى عليه ﷻ خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه الغفور الرحيم ، وأنه شديد العقاب ، كل هذا تحقيق لتقوى الله ﷻ .

قال : ((**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) ؛ أي السمع والطاعة لمن ولاه الله ﷻ أمركم ، مَن وَلِيَ أمر المسلمين السمع لكلامه والطاعة لأمره.

والسمع والطاعة لم يأت في هذا الحديث فقط السمع والطاعة لولاة الأمر ؛ بل جاء في أحاديث كثيرة جداً عنه صلوات الله وسلامه عليه تأكيداً على هذا الأمر العظيم الذي به انتظام أمر المسلمين واجتماع كلمتهم ؛ لأن انتظام أمر المسلمين لا يكون إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمعٍ وطاعة ؛ أمور مترابطة، انتظام أمر المسلمين لابد فيه أن يكونوا مجتمعين ، وإلا لو كان كل إنسان على رأسه كيف يتحقق لهم أمن!! كيف تتحد لهم كلمة !! كيف تجتمع القلوب !! كيف يؤمَن على الدماء أو الأعراض !! كيف تُستردّ الحقوق !! كيف تعاد المظالم !! الخ ، فهذا لا يتحقق إلا بجماعة ، أما إذا كانوا متفرقين لا تنتظم أمورهم أبداً ، ولا جماعة إلا بإمام ؛ لابد من وجود إمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ؛ إذا كان لهم إمام ولا يُسمع له ولا يطاع فوجوده مثل عدمه ، لا تتحقق المصلحة بمثل هذا . ولهذا تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في الحث على السمع والطاعة ، بل جاء في بعض الأحاديث ضم السمع والطاعة لولي الأمر إلى الطاعات الكبار مثل الصلاة والزكاة ، وعدُّ ذلك من أسباب دخول الجنة ، ومن خطب النبي ﷺ في حجة الوداع قوله ﷺ : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) ؛ فضمّ عليه الصلاة والسلام الطاعة لولاة الأمر إلى الصلاة والزكاة والصيام ، ضمها إلى هذه الطاعات الكبيرة وجعل هذه كلها من أسباب دخول الجنة .

وهناك ارتباط بين الصلاة والصيام والزكاة وبين طاعة ولي الأمر ؛ لأن هذه المصالح الدينية العظيمة لا تتحقق للناس إلا باجتماع وأمن وسلامة وزوال للمخاوف والاعتداءات والظلم ، وهذه كلها لابد فيها من جماعة ، والجماعة لابد فيها من إمام ، ولهذا إذا لم يكن الناس في جماعةٍ أمرهم منتظم ولهم إمام قد لا يتمكنون من أداء الصلوات في المساجد ، وقد لا يتمكنون من الاجتماع فيها لطلب العلم ، وقد .. وقد .. أمور كثيرة ، والله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، يعني بعض الناس لا يردعه عن ممارسات خاطئة واعتداءات آثمة إلا خوفه من

السلطان ، مجرد وعظه أو نهيه أو تذكيره لا يكفيه ، فالسلطان يتحقق بوجوده مكاسب كبيرة وعظيمة لأمة الإسلام ، وهذه المصالح لا تتحقق إلا بالقيام بهذا الأمر وهو السمع والطاعة .

بل إنه عليه الصلاة والسلام أكد في بعض أحاديثه على السمع والطاعة حتى وإن كان السلطان أو ولي الأمر ظالم أو جائر أو غير عدل ، وهذا السمع والطاعة على خلاف ما يفهمه بعض الناس أنه يرجع إلى شخص السلطان ، هو يرجع إلى مكانة السلطان ومنزلته ،هو ولي أمر المسلمين ، وهذه مكانة عظيمة ، فالسمع والطاعة لمكانته ومنزلته وهي ولاية أمر المسلمين ؛ فيُسمع له ويطاع حتى تنتظم الأمور وتصلح وتستقيم ، هذا إذا كانت حاله – كما أشرت – الظلم والجور والفسق والاعتداء يُسمع له ويطاع من أجل مكانته ومنزلته التي بها تنتظم الأمور ، وإلا تصبح أمور الناس فوضى؛ تراق الدماء وتنتهك الأعراض وتُستلب الأموال وتتفرق الكلمة وتعم الفوضى وينتشر الفساد إلى غير ذلك من المفاسد التي تترتب على ذلك .

بل لو فُرض أن السلطان من جوره وظلمه اعتدى على مال الشخص وأخذه ظلماً قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً على هذا الأمر العظيم : ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) ؛ وهذا فيه تنبيه من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن بعض الناس مقابل أخذ حقه أو عدم إيصال حقه إليه ينزع اليد من الطاعة لحظ نفسه ، وقد يكون فيه هو نفسه فيه خلل ، فيكون المقياس في باب السمع والطاعة عنده النظر إلى حظ نفسه ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨] ؛ إذا أعطي من المال رضي وبارك السلطان وأثنى عليه ، وإن لم يُعطَ أو أخِذ منه شيء من حقوقه نزع اليد من الطاعة ، فأصبح نزع اليد من الطاعة ليس مرتبطاً بقضية نصرة الدين وإنما مرتبطة بمطامع ، ولهذا عمر بن عبد العزيز جاءه مرة حال ولايته نفر من الخوارج بزعمهم أنهم يعارضونه في مال المسلمين ومصارفه ، فأخذوا يتكلمون عن المال وكان كلما أوردوا عليه شيئا أجابهم بالآية والحديث والحجة والبرهان حتى لم يبقَ عندهم شيء وسكتوا ، فلما انتهوا قالوا : نحن جئنا من بلد كذا وكذا والمسافة بعيدة وليس عندنا مال ونريد أن تحملنا على البريد حتى نذهب ، قال عجباً أنتم تكلمونني الآن في المال ولا حق لكم في مال البريد أن تُحملوا عليه ، معنى كلامه : كيف تجادلون في المال وأنتم تطالبون في أمر يتعلق بالمال لا حق لكم فيه ، ثم أعطاهم شيء من أموال الصدقة ونحو ذلك ليركبوا بها إلى بلادهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[التوبة:٦٠] .

فبعض الناس في هذا الباب يستنكف من السمع والطاعة لحظ نفسه ؛ فتجده مثلا يخوض في أعراض الولاة ويطعن فيهم وفي عدالتهم مثلا لأنه لم يجد عملاً أو لم يُعطَ مالاً أو لكونه فقيراً ونحو ذلك من المعاني ، فالنبي ﷺ نبَّه على هذا الأمر قال : ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) هذه الكلمة لو قيلت لأحد الناس «اسمع وأطع ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك» قال لا والله ، وربما أتبعها بسب وشتم ، هذا أنفة من قبول الحق ،

هذا دين؛ الذي قال ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) هو نفسه الذي قال: ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ))، فبعض الناس يتقبل الصلاة ويتقبل الزكاة ولا يأنف، وإذا جاء إلى باب السمع والطاعة يستوحش . أيضاً كُتُب أهل العلم وكثيراً ما أضرب المثال بكتاب الإمارة في صحيح مسلم ، كتاب الإمارة في صحيح مسلم مضموماً إلى كتب الصلاة الزكاة الحج الإمارة ، فبعض الناس يقرأ كتاب الصلاة وكتاب الحج ولا يستوحش وأما كتاب الإمارة يستوحش منه!! لأنه مليء بالأحاديث ((اسمع وأطع، اسمع وأطع)) ونفسه فيها هوى منعه من قبول ذلك فلا يسمع ولا يطيع ، ولهذا جاءت التأكيدات عنه ﷺ في قضية السمع والطاعة لمن ولي أمر المسلمين مراعاةً لمكانة ومنزلة من ولي الأمر ، وحفظاً لجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم واتحاد صفهم وبقاء هيبتهم في نفوس الأعداء .

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن العدو لا يريد للمسلمين اجتماع الكلمة ، ولهذا ربما غرس فيهم من بني جلدتهم وممن يتكلمون بألسنتهم من يُفُتُّ في الاجتماع ويخلخل الاجتماع فيتكلم من الداخل ، لأنه لو تكلم العدو الخارجي لما قُبِل منه ، فربما زرع فيهم من داخلهم من يتكلم بألسنتهم وهو من جلدتهم من يُفُتُّ في هذا الاجتماع ويخلخل هذا الاجتماع من داخله من أجل انهيار الكيان الإسلامي والكلمة الإسلامية واجتماع المسلمين . وهذا من كيد الأعداء ومكرهم بأهل الإسلام ؛ فلهذا ينبغي أن يلاحظ المسلم هذا الأمر العظيم وأن يكون محل اهتمامه وعنايته عملاً بوصية النبي عليه الصلاة والسلام ، وانظر في قيمة هذه الوصية حيث ضمها إلى تقوى الله قال: ((**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ** ﷻ ، **وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) أي : أوصيكم بالتقوى وأوصيكم بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم .

ونبّه هنا عليه الصلاة والسلام بل حذّر من الاستنكاف والاستكبار ، ولاحظ تنبيهه وتحذيره من الاستنكاف والاستكبار بقوله: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) لأن النفس قد يدخلها استكبار ، بعضهم يقول : "ومَن يكون !! لا أسمع ولا كرامة " يستكبر ولا ينظر إلى مصلحة الأمة واجتماع المسلمين وإنما ينظر إلى أنفةٍ جاهلية كانت معهودة في أهل الجاهلية ، بل من أعظم خصال الجاهلية وأبرزها ثلاث خصال : الشرك ، والفرقة ليسو جماعة ، وعدم السع ؛ الأنفة من السمع والطاعة لمن ولي الأمر ، ولهذا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لما ألّف كتاب مسائل الجاهلية بدأها بهذه الأمور الثلاثة ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)) وذكر هذه الأمور الثلاثة ، يعني لا يجد فيها غل ؛ قلبه نظيف تجاهها ((لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَالنُّصْحُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ)) ، قلب المسلم نظيف تجاه هذه الأمور الثلاث .

قال: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) بل أيضا زاد في الأوصاف في بعض الأحاديث قال: ((وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) ؛ عبد ، وحبشي ، ورأسه كأنه زبيبة ، وأيضا اسمع وأطع ؛ هذا كله تنبيه وتحذير من قضية الأنفة والكبر التي قد توجد في قلوب بعض الناس لأي مبرر كان ، فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول لا تأنف ولا تستكبر من السمع والطاعة مهما كان الأمر وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ.

هل قوله عليه الصلاة والسلام ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) تحديد أو ضرب مثال ؟ ضرب مثال ؛ يعني اسمع وأطع هذه مصلحة للأمة ، مصلحة للمسلمين ، اجتماع لكلمة المسلمين . ((اسمع وأطع وَإِنْ تأمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) وبإجماع أهل العلم أن العبد ليس أهلاً للولاية ، لكن إن تأمّر وغَلَب وأصبحت له ولاية بالغلبة واستتب له الأمر وأصبحت الولاية بيده قال: ((اسمع وَأطع وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد حبشي)) .

بعض أهل العلم قالوا : أن قوله ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) هذا مبالغة أريد بها التأكيد على قضية السمع والطاعة في كل الأحوال .

ومن أهل العلم من قال : بل حتى ولو حصل هذا الأمر له بالغلبة ، وقد يفيد في هذا المعنى قوله: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ**)) ؛ يعني إن حصلت له ولاية عليكم بالغلبة ، تغلّب عليكم وأصبح له غلبة وأصبح له ولاية واستقر له الأمر . قال: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عبد**)) .

الشاهد أن هذا فيه تأكيد عظيم جداً على قضية السمع والطاعة والتحذير من نزع اليد من الطاعة والخروج على الولاة الذي لا يترتب عليه إلا الشرور وإراقة الدماء .

جاء نفر من أهل بغداد إلى الإمام أحمد رحمه الله وذكروا الحال التي آلت إليه ولاية أمر المسلمين وانتشار البدع بل والكفريات على أيدي بعض الولاة في زمانهم والقول بخلق القرآن وغير ذلك ، فجاء بعض علماء بغداد إلى الإمام أحمد يشاورونه في الخروج على ولي الأمر ونزع اليد من الطاعة وأخذوا يعدِّدون عليه ؛ فعَل كذا وفعَل كذا وفعَل كذا ، فناظرهم ساعة قال لهم : «اتقوا الله، لا تريقوا دماءكم ولا دماء المسلمين» ، وقال لهم : «اصبروا حتى يستريح بَر أو يستراح من فاجر» ، وقرأ عليهم الأحاديث الواردة في الباب حديثاً تلو الآخر ذكّرهم بذلك كله ، ولما خرجوا عند باب بيته بعد بيانه لهم ونصحه قالوا لحنبل بن إسحاق – ابن أخي أحمد – تخرج معنا ؟ والإمام أحمد نصحهم الآن في البيت وعند باب بيته يكلمون ابن أخيه!! قالوا تخرج معنا ؟ يقول فشاورت والدي فقال لا تصاحبهم فإنما نهاهم أحمد عن شر ، قال حنبل ابن إسحاق ثم إنهم خرجوا فقُتل منهم من قتل وسُجن من سجن، وهذه نتيجة متكررة عبر التاريخ . وابن تيمية رحمه الله في كتابه منهاج السنة استقرأ قصص من كان منهم خروج على الولاة من أجل إنكار المنكر وخرج من ذلك بخلاصة قال : «فما أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا» ؛ يعني هؤلاء الذين خرجوا خلاصة أمرهم أنهم ما أقاموا دين الذي بزعمهم أنهم سيقيمونه ، ولا بقيت دنيا الناس لأن الدماء أريقت والأموال انتهبت والأعراض انتهكت والفوضى عمّت إلى غير ذلك ، وهذا كله يأتي بسبب تضييع السنة والأنفة من فعل ما أوصى به النبي عليه الصلاة والسلام .

فعهد إليهم عليه الصلاة والسلام هنا بالسمع والطاعة قال: ((**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) وفي رواية ((حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) .

ثم قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) ؛ لاحظ بعد أمره بالتقوى والسمع والطاعة لولي الأمر أشار إلى أنه سيوجد فيما بعد اختلاف كثير ؛ وهذا علَم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، يخبِر بأمورٍ تقع في المستقبل يخبره الله ﷻ بها وينبؤه بها وتقع طبقاً لما أخبر عليه الصلاة والسلام ، فقال للصحابة الذين حوله: ((**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) ؛ من يعش منكم : أي من يطول عمره من الصحابة ويمتد به العمر فسيرى اختلاف ، أما من يموت قريباً فلا يرى ذلك ، ولهذا في آخر عهد الصحابة بدأت بذور البدع وأصول البدع الكبار وأنكروها واحدةً واحدة ، فوُجدت بدعة القدر ووُجد أيضا بدع تتعلق بالإيمان والتكفير ، وجد أيضاً بدع السبابة الذين يطعنون في الصحابة ﷺ ، وأصول البدع وجدت وأنكرها الصحابة ، كل من كان من الصحابة قد أدرك تلك البدع أعلن إنكاره لها وبراءته منها ، لما نُقل -كما في صحيح مسلم- لابن عمر بدعة القدرية قال : ((فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، ولَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)) ثم ساق الحديث الطويل حديث جبريل ، فالصحابة ﷺ من تأخر أو طال به العمر أدرك بدايات البدع وبدايات خروجها وأنكروا ذلك . وهنا عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) .

ثم إن تساؤلاً يأتي هنا في قلب الناصح المحب للخير الطالب للفوز والنجاة ، إذا سمع ((**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) سيرِد في ذهنه سؤال : ما هو الحل ؟ ما هو المخرج ؟ كيف النجاة ؟ هذا كما يقولون سؤال يطرح نفسه ، وقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال دون أن يُسأل ؛ فذكر الاختلاف وذكر المخرج قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) ، وفي بعض الروايات ((فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) .

المخرج عند وجود الاختلاف الكثير يتلخص في أمرين لا نجاة إلا بهما ولا سلامة إلا بتحقيقهما :

- الأمر الأول : لزوم سنة النبي عليه الصلاة والسلام وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ قال ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**))، والخلفاء الراشدون المهديون من بعده المعنيون بهذا الحديث هم أربع ليس لهم خامس ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً)) وهي مدة خلافة هؤلاء الأربعة ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وهم خير الصحابة .

فأوصى هنا بلزوم سنتهم ، وسنتهم ليست أمراً جديداً خلاف ما كان عليه ﷺ ؛ بل هو توطيد وتثبيت لسنة النبي ﷺ ، فليس منهم من يأتي بشيء من قِبل نفسه ، وعمر بن الخطاب ﷺ لما قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» – وهي كلمة كم تعلق بها من يُحدِثون في الدين – هي من هذا الباب توطيد السنة وتثبيتها ، لأنه لما جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح وأعجبه هذا الاجتماع قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» ، هل هذا إحداثٌ في الدين أو تثبيت

وتوطيد لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؟ ثبت أنه ﷺ صلى بالناس التراويح واجتمعوا خلفه جماعةً في المسجد وتوقف عن ذلك ولما سألوه قال: ((خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ)) ؛ هذا هو الذي منعه ، إذاً هي سنة ثابتة وتوقف عنها ﷺ خشية أن تُفرض رحمةً بأمته ، وهل هذه الخشية – خشية أن تفترض عليكم – موجودة في زمن عمر رضي الله عنه ؟ انتفت ؛ فجمع الناس ، إذاً هذا توطيد للسنة . وقوله : «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» هذه بدعة لغوية ليست بدعة شرعية ؛ لم يُحدِث في الدين ما ليس منه ، لم يخالف قول النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، ثم يأتي أقوام بأمور لا أصل لها في الدين ويقولون هذه بدعة حسنة !! قد مر معنا قريبًا قول ابن عمر رضي الله عنهما : « كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» يعني لا يشفع لهم ذلك .

ثم لاحظ في الحديث وصف النبي ﷺ لهؤلاء الخلفاء بوصفين ؛ قال : ((**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) وصفهم بهاتين الصفتين : الرشاد والهداية ؛ وهما وصفان وصف بهما رب العالمين نبيه ﷺ في قوله ﷻ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم:٢] ، فنفي الضلال يقتضي ثبوت ضده وهو الهداية ، ونفي الغواية يقتضي ثبوت ضدها وهو الرشاد ، والضلال : فساد العمل ، والغواية : فساد العلم ، وإثبات الرشاد والهداية يعني صلاح العلم والعمل .

فهنا قال عليه الصلاة والسلام: ((**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) خص هاتين الصفتين بالذكر منبهاً بذلك إلى صلاح علم الخلفاء وصلاح عمل الخلفاء ، فهم في باب العلم والعمل قدوة ؛ علمهم صالح وعملهم صالح ، فهم في العلم أهل علم نافع ، وفي العمل أهل العمل الصالح ، فأمَر بلزوم سنتهم والتمسك بها .

وقوله : ((**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) هذا فيه تنبيه إلى ما أشرت إليه وهو: أن سنّتهم وصفها براشد ومهدي ، سنته تثبيت وتوطيد ليس عنده شيء من قِبل نفسه ، فالراشد المهدي : هو من صلُح علمه وعمله بالسنة والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فسنتهم من سنته وهديهم من هديه وطريقتهم من طريقته عليه الصلاة والسلام، وهم أبعد الناس عن البدع والأهواء وعن الوقوع فيها ، فأكد عليه الصلاة والسلام على لزوم سنتهم .

قال: ((**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)) بعض العلماء قال : إن مثل الإنسان في الفتن والبدع مثل شخص سقط في بحر لجي متلاطم الأمواج ووجد في هذه الأمواج الجارفة حبل ، من شدة حرصه على الخلاص لا يكتفي بمسك الحبل بيده ، يقول ربما أني أمسكه بيدي وترتخي يدي تنفلت منه ، فتجده من شدة حرصه يعض عليه بناجذه ، يُدخل الحبل في ناجذه في أضراسه ويعض عليه بقوة إضافةً إلى إمساكه بيديه ، وليته أيضا يسلم ، يخشى من الغرق . فهذا يوضح لنا ضرورة وحاجة الإنسان الشديدة في خضم الفتن والبدع والأهواء إلى الاعتصام بالسنة والتمسك بها والتعويل عليها وأن تكون هي قائد الإنسان وهي أميره يؤمّرها على نفسه .

((**عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ؛ وإذا كان عليه الصلاة والسلام أوصى في هذا الحديث بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ولم يتهيأ للإنسان لقيا هؤلاء الخلفاء ، ولم يعطِ نفسه أيضا وقتاً لمعرفة سيَر هؤلاء الخلفاء فكيف يعَضّ بالنواجذ ؟ وإذا كان جُلّ اهتمام الإنسان في قراءاته اليومية فيما يسمى بالثقافة العامة ولا يقرأ سيَر هؤلاء وأخبارهم فكيف يعض بالنواجذ ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه . فهذا فيه تنبيه على أهمية معرفة سيَر هؤلاء الأجلاء النبلاء الأفاضل وتكرار مدارسة أخبارهم وأخبار غيرهم من الصحابة ، فإنه بمثل هذه القراءة ومثل هذه المعرفة لسيَر وأخبار هؤلاء يتيسر للإنسان العض عليها بالنواجذ ، وإلا كيف يتسنى لشخص أن يعض بناجذيه على سنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منها خبر! وليس لديه بها معرفة! ولا قرأ عنهم يوماً حرفاً !! بل يوجد في بعض المسلمين من قيل له من هم الخلفاء الراشدون الأربع ؟ قال ما أدري ، وربما غلط في أسماءهم ، مثل أن يقول بعضهم : عمر بن عفان ، أو يقول الآخر عثمان بن الخطاب ، يحصل هذا ، يعني حتى أسماءهم ما يعرفها ، وربما لو سُئل عن بعض التافهين من البشر وحثالات الناس لكان عنده معرفة تفصيلية بأسمائهم وتفاصيل حياتهم ، فكيف يتسنى للإنسان الاستنان بسنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منهم خبر ولا قرأ لهم سيرة ولا وقف لهم على أثر !! فهذا فيه تنبيه على أهمية النظر في سير هؤلاء وأخبارهم وهديهم وسلوكهم ومنهجهم وطريقتهم ومجاهدة النفس على الاقتداء بهم ، هذا معنى قوله : ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**)) هذا الذي به النجاة ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)) ، هذا الأمر الأول .

- الأمر الثاني : ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ، قلت فيما سبق الحديث دل على أن المخرج من الاختلاف الكثير بأمرين: الأول لزوم السنة ، والثاني : مجانبة البدعة؛ وذلك في قوله : ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**))؛ «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» إياكم والأمور المحدثة التي أحدثها الناس ، أوجدوها من باب التدين والتقرب إلى الله ﷻ ، أو أوجدوها من باب النصرة للدين ، أو أوجدوها من باب ذكر الله والتقرب إلى الله .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ؛ والمراد بالأمور: أي الأمور التي أحدثت في دين الله مما ليس عليه أمر رسول الله ﷺ كما يوضح ذلك قوله: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

وقوله : ((**إِيَّاكُمْ**)) هذا تحذير ، كما أن قوله السابق ((**عَلَيْكُمْ**)) هذا ترغيب ، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الباب بين الترغيب والترهيب ، رغّب في السنن وحذّر من البدع ؛ قال في السنن «عليكم بها» أي الزموها ، وقال في البدع «إياكم وإياها» أي احذروها .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) أي : إياكم وكل أمرٍ أُحدِث في دين الله لا أصل له ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكل ما كان من هذا القبيل احذروه ، تريدون النجاة كونوا من كل أمر أحدِث في

دين الله لا دليل عليه من كتاب الله ولا من سنة النبي ﷺ على حذر ، حتى وإن أعجبك ، حتى وإن رأيته حسنا ، حتى وإن زُيّن في عينك ، حتى وإن مضيتَ عليه سنوات ، حتى وإن مضيت عليه عمرك ؛ دعه .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) ؛ وقوله : ((فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) هذه قاعدة وأصل كلي جامع لا يخرمه شيء ولا يستثنى منه شيء ، والنبي ﷺ في مثل هذه الكليات الجوامع إذا كان فيها استثناء يستثني هو عليه الصلاة والسلام نصحاً للعباد ، وقد مر معنى قوله ﷺ : ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى)) لما كان في هذا العموم استثناء استثنى عليه الصلاة والسلام ، فهنا قوله : ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) لا يستثنى منه بدعة ، حتى ما كان من البدع ما يراه الناس حسناً جميلاً جيداً نافعاً مفيداً إلى غير ذلك فهو ضلالة ، ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله كلمته العظيمة التي أوردها الشاطبي في كتابه الاعتصام قال : «قال ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول : {اليوم أكملت لكم دينكم} فما لم يكن يومئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً» ، فالبدع كلها ضلالات حتى وإن استحسنها الناس ، حتى وإن قال صاحبها "ما أردت إلا الخير" ، وهذا سيأتي معنا ، وكم من بدعة فُعلت وأصحابها لم يريدوا بها إلا الخير ، لكن هذا لا يكفي ؛ لابد مع إرادة الخير من موافقة السنة ولزومها والتمسك بها ، فمن أراد النجاة فليحذر من البدع .

قال رحمه الله :

وعن حذيفة ﷺ قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها ؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود.

****

ثم أورد هذا الأثر عن حذيفة ابن اليمان ﷺ أنه قال : ((**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبّدوها**)) يعني كل عبادة لم تكن موجودة عند الصحابة وبين الصحابة فلا تعبّدوها ؛ لماذا؟ لأنها ليست من دين الله ، دين الله ﷻ هو الدين الذي بلّغه النبي ﷺ ومات وترك الصحابة عليه ، ولعلك تلاحظ هذا المعنى في قوله: ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا)) ، أما الدين فهو الدين الذي ترك النبيﷺ الصحابة عليه ، وكانت توجد بعض الأخطاء من بعض الأفراد فينبه عليه الصلاة والسلام على الخطأ في حينه ويُترك ، فالدين هو الدين الذي كان عليه الصحابة . وما نشأ بعدُ مما لم يكن عليه الصحابة فهذا ليس من دين الله ، ولهذا سيأتي إنكار ابن مسعود البدع التي وجدها في بعض مساجد الكوفة؛ أنكر عليهم بأن هذا العمل ليس معهوداً بين الصحابة فقال لهم : «لقد جئتم ببدعة ظلما أو فُقْتُم أصحاب محمدٍ عِلْما» يعني بلغتم في العلم موصلاً ودرجة لم يبلغها الصحابة .

فالدين هو ما كان عليه الصحابة ، ولهذا جاءت هذه الوصية من حذيفة قال : ((**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)) ؛ يعني كل عبادة لا يوجد عليها عمل الصحابة لا تعبّدوها ، وهذا فيه إشارة إلى الطريقة، الآن بسبب كثرة المحدثات تسمع هنا وهناك : "أنا طريقتي كذا وأنا طريقتي كذا وأنا طريقتي كذا" من الطرق المحدثة، وتحت كل طريقة من تلك الطرق المحدثة –طرق المتصوفة– تحت كل طريقة ركام هائل من البدع وزخم كبير من الضلالات لا حد لها ولا عد ، وكلٌ مفتخر بطريقته ، وكلٌ منتسب إلى طريقته بما فيها من ذاك الركام الكبير من الضلالات والبدع ، بدءً من الشرك وانتهاءً إلى أنواع كثيرة من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، فالطريقة هي طريقة الصحابة .

ما الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم ؟ قال : ((**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبدوها**))؛ أي لتكون طريقتكم طريقتهم ومسلككم مسلكهم . ولم يرضَ هذا أقوام ، ولهذا بعضهم يقسِّم أمره؛ في الاعتقاد يعتقد عقيدة أحد مؤسسي البدع ، وفي العمل يذهب مذهب بعض أهل الخرافة والضلال وهو في بُعدٍ تام عن هدي الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

فهذه وصية عظيمة أوصى بها حذيفة بن اليمان ﷺ قال : ((**كل عبادة لا يتعبّدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)) ؛ هذه قاعدة عظيمة في هذا الباب ، يعني كل عبادة لم يكن لها وجود في زمن الصحابة فلا تعبَّدوها ، ولهذا وجدنا أهل العلم لما أنكروا بدعة المولد ماذا قالوا في الإنكار؟ طرحوا سؤالاً لم يجب عنه أصحاب المولد ، قالوا لهم هل أنتم أحرص على الدين وأحرص على النبي ﷺ وأبلغ في حبه من الصحابة ؟ هل أنتم أفضل في محبة النبي ﷺ من أبي بكر ومن عمر ومن عثمان ومن علي ؟ هل درجة المحبة التي عندكم أبلغ من درجة هؤلاء وأكبر ؟ الجواب : لا ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة مع شدة حرصهم وعظيم حبهم للنبي ﷺ ما منهم واحدٌ احتفل ، لم يحتفلوا لا بمولد ولا برجبية ولا شعبانية ولا ولا .. إلى غير ذلك ، هذه وجدت من بعد في القرن الثالث ((**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**)) .

فإذا جاءك شخص وقال "هذا من باب كذا ومن باب كذا وهذا أمر حسن وهذا أمر عظيم" قل له : قال ابن عمر ﷺ : «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» ، والهدي القويم والصراط المستقيم هو ما كان عليه الصحابة ، يقول من يحيون المولد : "نظهِر حب نبينا عليه الصلاة والسلام" ، هل ندَّ هذا الإظهار عن أبي بكر وعمر وهم أحرص منك وغاب عنهم !! هل هو خيرٌ حجبه الله عز وجل عن الصحابة وادَّخره لك !! لو كان خيرًا لسبقوا إليه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ممتدحًا ومثنيًا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة:١٠٠] هؤلاء أهل الثناء؛ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ ، أما الذين أحدثوا هؤلاء شأنهم آخر ليسو من أهل هذا الثناء ، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ وهذا يؤكد لنا

وصية حذيفة هذه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ يعني اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، أما شخص لا يقنع بطريقتهم ولا يرضى سلوكهم ويخترع وينشئ ويُحدث ويعمل أعمالا ليست من هديهم ولا من طريقتهم فهذا خاسر ، والربح إنما يكون باتباعهم بإحسان ، قال: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ هذا معنى قول حذيفة ((**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**)) .

((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)) ؛ وهذا حق ، هل تُرك لنا شيء من الحق والهدى لم يبيَّن في الصدر الأول ؟! ولم يتبين في الزمن الأول ! لم يدع لقائل مقالا ؛ ولهذا كل مقال لا يكون قائما على الكتاب والسنة ليس منطلقًا من الكتاب والسنة ليس مؤسسًا على الكتاب والسنة فهو ضلال ، لا مانع أن يتحدث العالِم على ضوء الكتاب والسنة موضحا ومبينا ؛ موضحا المعاني مبينا الدلالات رابطًا بين النصوص متكلمًا في هذا الباب بعلم وفهم وأصل ودرايةٍ من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ لا مانع من ذلك ، أما أن يُترك الكتاب والسنة ثم يتكلم الإنسان في باب العبادات من خلال الذوق ، أو يتكلم في باب العبادات من خلال التصور ، أو من خلال الفكر، أو من خلال الرأي، أو من خلال النظريات العقلية أو من خلال التجارب أو إلخ " هذا كله ضلال .

((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)) ؛ وكل مقال لم يؤسَّس على ما كان عليه الأول ولم يُبنَ على ما كان عليه الرعيل الأول فهو ضلال ؛ هذا معنى قوله ((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)).

((**فاتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ و«القراء» عندما تطلق في هذا الزمان لا يراد بها حفظة حروف القرآن ومن يجوّدونه ويحسنون مخارجه ؛ المراد بالقرَّاء : العلماء الذين جمعوا في قراءة القرآن بين العلم والعمل ، لأن الجادة التي كان عليها الصحابة في تعلم القرآن : الجمع بين العلم والفهم والعمل ، بعضهم يمكث في سورة البقرة سبع سنوات، والآن في زماننا تُعقد منافسات ويحفظ القرآن في ستة شهور !! ما الذي يحفظ في ستة شهور؟ حروف القرآن ، ابن عمر مكث في سورة البقرة سبع سنوات لماذا؟حفظ وفهم وتدبر وعمل ، فالقراء المراد بهم: من اعتنوا بالقرآن علما وعملا.

وقد ذم النبي عليه الصلاة والسلام من كان حظه من القرآن مجرد القراءة دون عناية بفهم القرآن ودون عناية بالعمل بالقرآن ، بل ذكر عليه الصلاة والسلام من حال الخوارج أنهم يقرؤون القرآن قراءةً يحقر الصحابة قراءتهم مع قراءتهم، ويصلّون صلاةً يحقر الصحابة صلاتهم مع صلاتهم ، ووصفهم مع ذلك كله بقوله : ((يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ، يعني ما يتعدى حظه من القرآن الحنجرة ؛ ما معنى الحنجرة؟ يعني صوت جميل رائع ، مخارج جميلة ، قراءة حسنة عظيمة ما يجاوز هذا الحد ، حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة هذا معنى قوله ((لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ، يعني لا يتجاوز حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة ، فإذا قرأ قيل ما أجمل صوته ما أحسن صوته ، أما فهم القرآن والعمل بالقرآن والعناية فهذا شأنه أمر آخر .

فقال: ((**اتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ والقراء يخصون بالوصية بالتقوى لأنهم أصبحوا بذلك موضع قدوة للناس، فإذا كان من قرأ القرآن وحفِظه مضيعاً مقصراً متهاوناً مفرطاً فكيف بمن سواه !! وإذا كانت قراءة القرآن مجرد منافسة في باب حفظ القرآن فقط دون عمل فهذا فيه خطر على الناس ، قد جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذكر جماعة من القراء في زمانه قال «يقول الواحد منهم قرأت القرآن كله ولم أسقِط منه حرفا» يعني أنني قرأته من أوله إلى آخره بدون لحن بدون أي خطأ ؛ لا في المخارج ولا في المدود ولا الخ، «وقد أسقطه والله كله ، لا يُرى عليه القرآن لا في خُلقٍ ولا في عمل» يعني إن نظرت إلى أخلاقه لا تجد فيه الأخلاق الموجودة في القرآن ، وإذا نظرت إلى أعماله لا ترى فيه الأعمال التي يدعو إليها القرآن، ثم قال رحمه الله : «ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة ، وإذا كانت القراء مثل هؤلاء لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء» ؛ هذا في زمن الحسن البصري زمن التابعين !! .

فالقراء هم أهل العلم بالقرآن والعمل بالقرآن ومجاهدة النفس على القيام بما جاء في القرآن . والآن تجد في زماننا من يشتهر بقراءة القرآن وبصوته الجميل ثم إذا رأيت أعماله تُصدم والله ، يعني تجد معاصي معروفة ومتقررة وبيِّنة في الكتاب والسنة ما يبالي بها ؛ تجد فيهم من هو حليق ، وتجد فيهم من هو مدخن وتجد فيهم من هو مسبل ثيابه ، وتجد فيهم من هو أعظم من ذلك متهاون في صلاته ينام عن صلاة الفجر وينام الخ ، بل وجد في فترة الماضية أحد مشاهير القراء افتتح أغنية لإحدى المغنيات الكبار بآيات جاء وقرأها بين يدي الأغنية !! يا سبحان الله أي حال هذه وأي أمر هذا !! وعبارة الحسن التي قالها في زمانه خفيفة في مثل هؤلاء ، وبعضهم أخذ أيضا يطوّع القرآن وصوته بالقرآن إلى إيقاعات معيّنة تُعرف عند أهل الموسيقى وذهب بالقرآن مذهباً آخر ؛ هذا كله عبث ، وكله من عدم معرفة قدر القرآن ومكانة القرآن -تنزَّهَ كلام الله ﷻ- ، وقد قال أحد أهل العلم قديما : «من أراد أن يعرف الفرق بين كلام الله وكلام البشر فهو كالفرق بين الله وخلقه»؛ هذا كلام رب العالمين ﷻ .

فأوصى حذيفة ﷺ هذه الوصية العظيمة قال : ((**فاتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ خصهم بالوصية مع أن التقوى يوصى بها الجميع لأن القراء في موضع القدوة ، أرأيتم الآن لما ينظر الناس إلى أحد المشاهير الذين عُرفوا بالصوت الجميل وتأثر بصوته وقراءته ثم لما رأى عمله ماذا سيقول من رآه ؟ يقول إذا كان هذا بهذه الصفة فأنا من باب أوْلى ، فكم يكون على أيديهم من خطر على أعمال الناس وعلى سلوكهم ، والقرآن كما قال الحسن : «أنزِل ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا» ، وإذا أردت أن تعرف معنى قوله «أنزل ليُعمل به» اقرأ حديث عائشة لما سُئلت عن خُلق النبي ﷺ قالت : «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» .

قال: ((**اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم**)) ؛ يعني يا معشر القراء إذا أردتم النهج السديد والمسلك القويم فخذوا طريق من كان قبلكم ، يعني انظروا في طريقة الصحابة ﷺ ، ولهذا من الحسنات الطيبة والجميلة أن مدارس القرآن ومدارس التحفيظ تسمى بأسماء مشاهير القراء من الصحابة ، هذه دعوة للطلاب أن

ينظروا إلى هؤلاء القدوات من الصحابة الأعلام قراء القرآن حفظة كتاب الله الذين جمعوا بين العلم والعمل ، وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلى أن من أكرمه الله ﷻ بالقرآن وقراءته والجلوس لحفظه عليه أن يأخذ بطريقة الصحابة وينظر في هدي الصحابة ونهج الصحابة مع كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا.

قال الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين تحت باب التحذير من البدع:

وقال الدارمي: أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ ، أَنْبَأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ ﷺ فَقَالَ : أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ ؟ قُلْنَا : لاَ ، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفاً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً ، قَالَ : فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ : إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ ، قَالَ : رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حِلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ : كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : هَلِّلُوا مِائَةً فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً. قَالَ : فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ : أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء . ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ ؟ قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ : فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ ، هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ. قَالُوا : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَمْ

يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ . ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ ﷺ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ .

والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

****

قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في خاتمة كتابه هذا العظيم «فضل الإسلام» تحت باب التحذير من البدع : ((**قال الدارمي**)) أي الإمام المعروف صاحب كتاب «السنن» ، وهذا الأثر ساقه الإمام الدارمي رحمه الله في سننه بسند ثابت عن رسول الله ﷺ ، وفيه قول النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج: ((إِنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ؛ وهو حديث متواتر عن النبي عليه الصلاة والسلام رواه عنه جَمْعٌ من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

والمصنف رحمه الله سبق أن ساق هذا الحديث بلفظٍ آخر في موضعٍ من كتابه «فضل الإسلام» ، لكنه أعاد هذا الحديث هنا لقصة ابن مسعود ﷺ مع أصحاب تلك الحِلَق المحدثة في دين الله ﷻ ؛ لينبه المصنف رحمه الله بذلك إلى خطورة البدع حتى وإن صغُرت البدعة في عين الإنسان ، فالبدعة أياً كانت خطيرة ، والبدعة الصغيرة تولِّد البدع الكبار ؛ كما حصل لأصحاب هذه الحِلق الذين لما رآهم ابن مسعود ﷺ على تلك الحال أورد حديث النبي ﷺ في ذم الخوارج والتحذير منهم ثم قال : ((وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ)) ؛ مشيراً بذلك ﷺ إلى خطورة أن يفتح الإنسان على نفسه باب الحدث في دين الله واتباع الهوى ولو كان في أمرٍ صغير في عينه ، لأنه إذا فُتح الباب دخل الإنسان ، والبدعة –كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله– أول ما تبدأ تكون شبراً ، ثم تكون ذراعاً ، ثم تمتد إلى ما شاء الله ، فلا يفتح المرء العاقل لنفسه البدايات ؛ لأنه إذا فتح لنفسه بدايات البدع جرّته إلى بدع أخرى ، فالبدعة تولِّد البدعة ، كما أن السنة تنادي أختها ، إذا عمل المرء بالسنة وحافظ عليها نادت السنة السنن الأخرى وأصبح يرغب في السنن ، بينما إذا فتح على نفسه باب الهوى وباب البدعة فالبدعة تجُرّ إلى البدعة وتدفع صاحبها إلى بدع أخرى ، والبدع الصغار تولِّد بدعاً كباراً وينفتح على الإنسان الباب ويصبح رجوعه إلى السنة من الأمور الصعبة ، وهذا معنى الحديث المتقدم: ((إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته)) ، ولهذا أيضاً كانت البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ؛ لأن البدعة صغُرت أو كبُرت يفعلها من يفعلها تديّناً وتقرباً واعتقاداً لصحتها .

فالشاهد ؛ المصنف رحمه الله أعاد حديث ذم الخوارج هنا مع أنه سبق أن أورده من أجل هذه القصة العظيمة قصة ابن مسعود ﷺ مع أصحاب تلك الحِلَق الذين اجتمعوا في المسجد واجتمعوا لأجل ذكر الله ، والذكر الذي كانوا يذكرون الله به هو الكلمات التي يحبها الله ؛ سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهذا أحب

الكلام إلى الله ، ولكن كانت الصفة ليست صفةً معهودة ولا معروفة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام بل صفة محدثة ؛ أن يجتمع جماعة ويتحلّقون ويقوم عليهم رجل ويضعون بين أيديهم حصى ثم يقول : "سبّحوا مئة " فيبدأ الجميع جماعةً يعدّون الحصى مئة تسبيحة ، فإذا انتهوا قال : "هللوا مئة " وهكذا ، فهؤلاء الذي جمَعهم هو ذكر الله ؛ أرادوا ذكر الله ﷻ ، أرادوا خيراً ، لكن النهج الذي سلكوه في إرادة الخير ليس نهجاً مشروعاً وليست جادةً مسلوكة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ساق المصنف رحمه الله هنا ما رواه الدارمي عن عمرو بن يحيى قال: ((**سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ**)) ؛ قبل صلاة الغداة : يعني قبل صلاة الفجر ، يجلسون عند باب عبد الله بن مسعود ؛ العالم الفقيه الإمام من علماء الصحابة وفقهاءهم ، فكانوا يجلسون عند بابه أي ينتظرون خروجه إلى المسجد ، والقصد من هذا الجلوس : الاستفادة من الوقت الذي يكون بين المسجد والبيت في سؤاله والتفقه عليه وأخذ العلم عنه ، وهذا يدل على أمرين في حق هؤلاء :

- ❖ الأمر الأول : الحرص الشديد على العلم وتحصيله والمكابدة والصبر على ذلك ، وهذا واضح جداً ؛ يأتون قبل صلاة الفجر ويجلسون عند بابه ينتظرون أن يخرج لصلاة الفجر ليمشوا معه إذا خرج فيستفيدوا علماً ، أو يستفسروا عن حكمٍ ، أو يستفتوا في أمرٍ ، أو نحو ذلك . هذا أمر واضح في جلوس هؤلاء الصحابة وهؤلاء الأفاضل عند بيته .
- ❖ الأمر الثاني المستفاد من جلوسهم : أدبهم في العلم وتحصيله ، وأدبهم في صحبة العلماء ، وهذا أمر واضح ، يعني ينتظر خروجه ، ويبكر إلى مجلس العلم أو إلى مكان العالم ، ويصحب العالم بأدب ، ويسأله بأدب ، ويستفيد من علمه ؛ فهذه صفات كانوا عليها . كلما عظُم أدب الإنسان في طلب العلم وتحصيله وأدبه مع أهله وحملته عظُم نصيبه وحظه منه ، وإذا فقد طالب العلم الأدب مع كتاب العلم ومع حملة العلم ضعُف حظه من العلم ونصيبه منه ، فهذا فيه جِدّ الصحابة في الطلب وأدبهم فيه ، فيهم من هو من الصحابة وفيهم كذلك من هو من التابعين .

قال : ((**كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ**)) ؛ وهذا يشير إلى أن هذه عادة لهم متكررة للاستفادة من ابن مسعود ﷺ ، ومن كان عرَض له استفتاء أو أمر معيّن أيضاً يتحرى هذا الوقت مثل ما حصل من أبي موسى الأشعري ﷺ .

قال: ((**فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ** ﷺ **فَقَالَ : أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا : لاَ**)) وأبو موسى الأشعري في ذاك الوقت كان أمير الكوفة ، ورأى أمراً منكراً فجاء إلى أحد كبار فقهاء الصحابة وعلماء الصحابة ليعرض عليه هذا الأمر المنكر الذي رآه ينتظر رأيه ، فجاء إلى هؤلاء وهم جلوس عند بيت ابن مسعود ﷺ وعن الصحابة أجمين ينتظرون خروجه فقال: أخرج إليكم بعد ؟ قالوا لا ؛ فجلس معهم ينتظر خروج ابن مسعود ﷺ .

((**فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ آنِفاً فِي الْمَسْجِدِ أَمْراً أَنْكَرْتُهُ ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**)) ؛ انظر عرض أبي موسى الأشعري ﷺ للأمر الذي رآه وأدبه أيضًا مع ابن مسعود ، ((**يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفاً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ**)) لاحظ تعبيره بـ«أنكرته» ولم يقل إني رأيت أمراً منكراً ؛ جزما منه بأن الأمر منكر ، وإنما قال «أنكرته» يعني رأيت أو ظهر لي أو تبين لي أنه منكر.

((**وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**)) ؛ يعني الشيء الذي أنكرته هو في ظاهره خير؛ ذكر لله ﷻ وتسبيح وتحميد وتهليل.

((**قَالَ : فَمَا هُوَ؟**)) يعني ما هو هذا الأمر الذي رأيته وأنكرته ؟

((**فَقَالَ : إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ**)) ؛ يعني إن كتب الله عز وجل لك حياة فسترى هذا الأمر ، ولعله هنا يرِد قول الناظم :

اللهُ أَخَّرَ مَوْتَتِي فَتَأَخَّرَتْ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبَا

فيقول : أنت إن كتب الله لك حياة فسترى هذا الأمر الذي أنكرتُه وستقف عليه في المسجد كما وقفتُ عليه.

وقول أبو موسى هنا «**سَتَرَاهُ**» يدل على أن هذا الأمر أصبح متكرراً في المسجد بحيث أنه جزم بأنه سيراه لأنه أمر متكرر .

((**قَالَ : رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حِلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً ، فَيَقُولُ : سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً**)) ؛ انظر جوانب هنا جعلت أبا موسى الأشعري يقول «**وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلاَّ خَيْراً**» :

- الجلوس في المسجد ؛ هذا أمر .
- انتظار الصلاة ؛ هذا أمر آخر .
- ذكر لله ﷻ بألفاظ شرَعَها ، بل يحبها ﷻ ، بل هي أحب الكلام إليه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) ، وفي هؤلاء الكلمات ورد أحاديث كثيرة تدل على عظم فضلها ورفعة مكانتها وعظم ثوابها عند الله .

فهم في المسجد ، وفي انتظار الصلاة ، وفي ذكرٍ لله ﷻ بألفاظ يحبها الله ﷻ بل هي أحب الكلام إليه ﷻ ، ولكنَّ طريقة الذكر والصفة التي اجتمعوا عليها بحيث يقوم عليهم رجل ، وبحيث أيضا يأتون بهذه الأذكار جماعةً بصوت واحد ، وأيضًا استخدام الحصى للعد كلما فرغوا من مئة عدوا مئة أخرى بالحصى ؛ هذه أمور لم تكن موجودة بين الصحابة . وأخذ يمارسها هؤلاء في المسجد والصحابة متوافرون ، ابن مسعود كانت وفاته في سنة اثنين وثلاثين ، كان أكثر أعيان الصحابة موجودون في ذاك الوقت ، وعدد من المبشرين بالجنة كانوا موجودين في

ذلك الوقت ، وعدد من فقهاء الصحابة كانوا موجودين ؛ ومع ذلك انشغل هؤلاء بهذا الأمر الذي لا أصل له بهذه الصفة في دين الله ﷻ ، والذي دفعهم إليه هو حب الخير والرغبة في الخير ولكن بدون رجوعٍ إلى أهل العلم وحملته ، وبدون فقهٍ وبصيرة في دين الله تبارك وتعالى.

أيضا لاحظ هنا : أنها حِلق وليست حلقة واحدة ؛ وهذا يدل أن البدعة تجُرّ إلى البدعة ، وفتح الباب على الناس في البدعة يجعل الجهال ومن لا علم لهم بدين الله ﷻ يدخلون في البدعة وينغمسون فيها ، وهذا أمر معروف من حيث الواقع ؛ أن الناس كثير منهم يوجد عنده رغبة في الخير وأيُّ أمرٍ يُذكر له أنه خير ينشره ويعمل به دون تمحيص ، ولعلكم تلاحظون الآن يكثر في زماننا إما أوراق مكتوبة أو عبر رسائل الجوال تُذكر أعمال ويُذكر ترغيب فيها والعمل لا أصل له والترغيب لا أصل له ولا دليل عليه، وتجد الناس ينشرونها ، وإذا قيل لأحدٍ هذا لا أصل له قال : " والله ما أردنا إلا الخير ، ودَّنا تنتشر الأعمال الصالحة ، ودّنا ينتشر الخير بين الناس " ، فكثير من الناس رغبته الشديدة في الخير وفي الوقت نفسه قلة بصيرته وعلمه بالدين تجعله إما يمارس البدعة ، أو يدعو إلى البدعة ، أو يكون من أنصار البدعة ؛ وينفتح عليه باب الإحداث والابتداع في دين الله ﷻ واتباع الأهواء . فهي ليست حلقة واحدة وإنما عدة حِلق في المسجد ، لكنها يقيناً بدأت بحلقة واحدة ، وهذه الحلقة وعليهم رجل سبّحوا مئة ، يدخل الناس المسجد ويرون جماعة ويسبحون ويهللون ويكونوا ناس لا علم لهم يقولون لماذا لا نكون مثل هؤلاء أهل الجد والاجتهاد في الذكر والمواظبة على ذكر الله ليسو غافلين ، لماذا لا نفعل مثلهم ؟ فتبدأ حلقة ثانية ، والحلقة الثانية تنادي الحلقة الثالثة ، والثالثة تنادي الرابعة وهكذا ، فنشوء الفرق والبدع والجماعات هذه بداياتها ، حتى الآن الفرق المحدثة تنشأ فرقة ثم يُعجب بها أفراد من الناس جهلة بدين الله فأيضاً يختطُّون لأنفسهم فرقةً أخرى فتكثر الضلالات والأهواء في الناس ويذهب عنهم العلم والدراية بسنة النبي ﷺ .

قال ابن مسعود : ((**قَالَ : فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ ؟**)) ؛ يعني لما رأيتهم على هذه الحال ماذا قلت لهم ؟

((**قَالَ : مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئاً انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ**)) يعني انتظار ما تأمر به أو ما توجّه إليه . وهذا أيضاً واجب الناس مع أهل العلم والفقهاء ؛ أبو موسى الأشعري عنده علم وعنده فقه ولكن ابن مسعود ﷺ منزلته في الفقه ومكانته فيه معروفة ، ولهذا لم يكتفِ بإنكاره هو لذلك – وإنكاره لذلك كان عن فقهٍ ولكنه دون مكانة ابن مسعود ﷺ في الفقه – فانتظر حتى يلقى ابن مسعود ﷺ ويعرض عليه الأمر . قال ((**انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ**)) : أي توجيهك في هذا الأمر .

((**قَالَ : أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء؟**)) ؛ يعني أفلا قلت لهم عدّوا سيئاتكم ، لأن العمل الذي يقومون به عمل غير مشروع ؛ حتى وإن كانوا يسبّحون ويهللون ويحمدون ، العمل الذي يقومون به غير مشروع في دين الله ، والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان مشروعاً مأموراً به أمر استحبابٍ أو أمر إيجاب ، أما التقرب إلى الله ﷻ بالعمل الغير مشروع هذا من موجبات رد العمل وعدم قبوله

كما قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، ولهذا قال : ((**أَفَلاَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيء**)) .

((**ثُمَّ مَضَى**)) ؛ يعني بعد أن قال لأبي موسى هذا الكلام .

((**ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟**)) والاستفهام هنا استفهام إنكار ، فهو يستنكر هذا الأمر الذي هم عليه ، ما هذا الأمر الذي أنتم تصنعون ؟ قوله «**مَا هَذَا الَّذِى أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟**»هذا استفهام إنكار ؛ هو لا يسألهم هنا عن هذا العمل هل أنتم تصنعون عملاً مشروع ؟ هل عندكم دليل عليه؟ هو لا يسألهم عن ذلك ، وإنما ينكر ما هذا الأمر الذي تصنعونه، وفهموا من كلامه أنه يسألهم عن صفة العمل ؛ ما صفته ؟ وصفته ظاهرة له ، سمع بها ورآهم عليها ، ففهموا أنه يسألهم عن صفة العمل أو طبيعة العمل الذي هم عليه فأخذوا يشرحون له عملهم ((**قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ**)).

((**قَالَ : فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لاَ يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ**)) ؛ عدّوا سيئاتكم لأن العمل هذا الذي تعملونه ليس من شرع الله ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ولم يكن يعمله الصحابة الذين هم قدوة للناس ، ومر معنا ثناء الله ﷻ على أتباع الصحابة بإحسان ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾[التوبة:١٠٠] ، فهذا الذي عليه هؤلاء أصحاب تلك الحِلق ليس من الإتباع في شيء بل هو من الإحداث في دين الله ﷻ ؛ فلهذا قال لهم: ((**عُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ**)) .

لاحظ هنا ملاحظة مهمة : القوم يذكرون الله ، وابن مسعود يقول لهم ((عدوا سيئاتكم)) !! أعظم من ذلك : يذكرون الله ﷻ بأفضل الذكر الذي هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وابن مسعود يقول ((عدوا سيئاتكم)) !! فإذا كان ابن مسعودٍ قال هذا الكلام في حق من اجتمعوا في المسجد انتظاراً للصلاة مسبّحين مهللين حامدين مكبرين وقال في حقهم هذا الكلام ؛ فكيف بمن اجتمعوا على غير دين الله لا في الصفة ولا في الذكر ولا في الهيئة إلى غير ذلك !! مثل من يجتمعون في المسجد يُنشدون الأناشيد بصوت واحد ، إذا كان أنكر ابن مسعود من يسبح ويهلل ويكبر جماعةً بهذه الصفة فكيف بمن يجتمعون للأناشيد أو خرافات أهل الفرق الباطلة وضلالاتهم أو أذكارهم المحدَثة ، فالأمر ولا شك أعظم وأفظع .

((**وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ**)) يعني ما أسرع سيْركم إلى طريق الهلكة ، ما أسرع ذهابكم إلى طريق الهلكة . و«ويح» : هذه كلمة يؤتى بها للتقريع والزجر ونهر الإنسان عن الأفعال القبيحة الذميمة المنكرة ، ((ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم)) يعني ما أسرع سيْركم إلى الهلكة .

((**هَؤُلاَءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)) ؛ يعني موجودون .

وهذه الكلمة؛ قوله ((هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون)) تشير إلى أن أصحاب تلك الحِلق ليسو من الصحابة وإنما من المسلمين الذين هداهم الله ﷻ إلى الإسلام وعرفوه من طريق الصحابة ثم اجتهدوا في فعل أعمالٍ في الإسلام يتقربون بها إلى الله لم يروا عليها الصحابة ، وطريق الإسلام إليهم جاء من طريق الصحابة ، فأخذوا يعملون أعمالاً ليست من هدي الصحابة ولا من طريقتهم ولا من سبيلهم ، ولهذا قال: ((**صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)) مشيراً بذلك إلى قاعدة عظيمة مهمة في الباب قررها الإمام مالك رحمه الله : «ما لم يكن ديناً زمن النبي ﷺ فلا يكون اليوم دينا» ، بل قررها حذيفة كما تقدم قريبا عندما قال : «كل عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها» . فهذا مراد ابن مسعود ﷺ بقوله : ((**صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ**)) منبهاً إلى هذه القاعدة : أن كل عمل يتقرب إلى الله به ليس عليه عمل الصحابة وليس معروفًا عند الصحابة فهو بدعة ، ولهذا جرت عادة أهل العلم في إنكار الأمور المحدثات بالتنبيه إلى أن هذه لم تكن موجودة عند الصحابة ﷺ ، فهل يكون هذا الأمر الذي يعمله هؤلاء خيرٌ حجبه الله عن الصحابة وحرم الصحابة منه وادّخره لهؤلاء !! قل هذه الكلمة لأصحاب الموالد وأصحاب الاحتفالات ؛ قل لهم : هذا العمل الذي تمارسونه الآن وتدّعون أنه إظهار لمحبة النبي ﷺ هل هو خير ادَّخره الله لكم وحجبه عن أبي بكر ، وحجبه عن عمر ، وحجبه عن عثمان ، وحجبه عن علي ، حجبه عن هذا الصدر المبارك! حُرموا منه وفزتم به !! حُجب عنهم وادّخر لكم ؟ أيمكن ذلك ؟

من كان عنده أدنى تأمل وأدنى فهم في هذا الأمر لأبصر ما عليه هؤلاء من ضلالة ومخالفة للهدي القويم والصراط المستقيم ، لأننا نجزم يقيناً أن هذا الأمر لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم السبّاقون ، ولاحظ هنا هذه اللفتة الكريمة في الآية ؛ الله ﷻ وصفهم بالسبق وجعل فرضنا في هذا الباب إتباعه ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ ؛ فرضنا نحن اتباعهم بإحسان ، ولهذا حظنا من الخير بحسب إتباعنا لهم ، أما السبق إلى الخير من جميع أبوابه فهو حظهم ، فكل خيرٍ لم يوجد عندهم أو بينهم أو فيهم فليس خيراً وليس من دين الله ، لأنهم السبّاقون لكل خير ، بل كل خيرٍ وصل إلى الأمة بعدهم وصل إليها من طريقهم هم نقلته ، نقلة الخير إلى الأمة، سمعوه من النبي عليه الصلاة والسلام وتحملوه بأمانةٍ وصدق وبلَّغوه الأمة .

فهذا أصل في هذا الباب من فقِهه سلِم من البدع ، من روّض نفسه عليه سلِم من البدع ، «أيُّ عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها» ، وهذا الأثر يفتح لك أيضا باباً عظيما في فهم هذا الأصل؛ وهو أن تقول: إذا كان هذا الأمر الذي حدث حدَث في زمن الصحابة ، وأعيان الصحابة موجودون ومتوافرون ، ومع ذلك وُجد والصحابة بين أيديهم ؛ فلأن توجد محدثات أكثر بعد زمانهم من باب أحرى وأولى .

وهذا أيضا يفتح لك باباً آخر في الفهم وهو : أن لا تستصغر في عينك بدعةً ، فالبدعة أياً كانت عظيمة وخطيرة وتجر صاحبها إلى مخاطر عظام جداً ، فلا تستصغر بدعةً ولا تقالّها ؛ بل إياك وإياها؛ احذرها .

قال: ((**وَهَذِهِ ثِيَابُهُ** -أي النبي عليه الصلاة والسلام- **لَمْ تَبْلَ ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ**)) ؛ مشيراً إلى أن موته ﷺ مبلِّغا الدين كاملاً غير منقوص كان عهده قريب ، كم بينهم وبين وفاة النبي ﷺ ؟ ربما لا يزيد على عشرين سنة ، إذا قلنا ابن مسعود توفي في السنة الثانية والثلاثين فيكون بينهم وبين وفاة النبي ﷺ في حدود عشرين سنة، يعني وقت قريب . ((**ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ**)) ثم تذهبون تفتتحون هذا الباب في الإحداث في الدين والصحابة لا يزالون بينكم !! فإذا كان هذا وُجد في ذاك الوقت فما بالكم بالأوقات المتأخرة !!.

ثم قال: ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ**)) ، وجاء في بعض الروايات ((لقد جئتم ببدعة ظلماً أو فُقْتم أصحاب محمد علما)) لأن هذا العلم الذي عندكم والعمل الذي تمارسونه لا وجود له بين الصحابة ، وهنا يقول: ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ**)) كأنه يقول لهم : أمامكم خياران ليس لهم ثالث؛ الخيار الأول: أنكم على ملة خير من ملة محمد ﷺ ، وانظر هذا الكلام القوي الذي أطلقه ابن مسعود في حقهم ، مع أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الذكر المشروع بصفة غير مشروعة فقال: ((أنتم على ملة هي خير من ملة محمد ﷺ، أو مفتتحوا باب ضلالة)) وانظر أيضا متأملاً قوله «أو مفتتحوا باب ضلالة» ففي هذا تنبيه إلى أن الدخول في البدع الصغار يجر إلى بدع كبار . وقوله ((**مُفْتَتِحُوا بَابِ ضَلاَلَةٍ**)) تشمل أمرين :

١- تشمل مفتتحوا باب ضلالة على أنفسكم ؛ بحيث تتوسعون في البدع وتكبر فيكم البدع ، وهذا سيأتي شاهده من الحديث .

٢- وأيضاً تحتمل معنى آخر : مفتتحوا باب ضلالة على الناس ؛ فتستمر هذه البدعة ونظائرها وأمثالها وينطبق عليكم الحديث: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) ، وليس من شرط الإنسان أن يسن السنة بقوله بل بفعله ، مثل ما حصل من هؤلاء في سن هذه الطريقة في الذكر .

اسمع الآن إلى الاعتذار ((**قَالُوا : وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلاَّ الْخَيْرَ**)) يعني لم نُرِد بهذا العمل إلا الخير ، ما أردنا شراً ، ما قصدْنا إحداثاً في الدين ، ما قصدْنا افتتاح باب ضلالة ، ما أردنا إلا الخير . وهذا لسان حال كثيرين ممن يعبدون الله تبارك وتعالى بغير بصيرة وبغير هدى من دين الله ، إذا سُئلوا عن الأمر الذي يعملونه أحيانا يقولون : " ما أردنا إلا الخير "، وأحيانا يسمّون أمراً يدل على أنهم ما أرادوا إلا الخير ، يعني مثلا من يقيمون الموالد يقيمونها بزعمهم لإظهار محبة النبي ﷺ ، إظهار محبته خير أرادوه لكن المسلك الذي سلكوه غير مشروع ولا دليل عليه في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ ولا في عمل الصحابة الأخيار رضي الله عنهم وأرضاهم ،

ولو كان فيه خير لسبقنا إليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأعيان الصحابة الذين هم أشد الناس حبًا للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فقال ابن مسعود ﷺ: ((**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ**)) ؛ يعني كم من إنسان أراد الخير ولكنه لا يصيب الخير، إذاً إذا كان ليس كل من أراد الخير أصابه من الذي يصيب الخير ؟ من وُفق للسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ والحذر من المحدثات ؛ من كان بهذه الصفة أصاب الخير ، أما الذي يفتتح لنفسه ولغيره أبواب العمل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بغير ما شرع الله ﷻ فهذا أمرٌ في غاية الخطورة .

ثم ساق ابن مسعود ﷺ لهم حديث النبي ﷺ في شأن الخوارج قال: ((**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ أَنَّ قَوْماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**)) ؛ لاحظ إيراد حديث الخوارج هنا وهو أن من يفتتح باب البدعة على الأمة ليس من لازم افتتاحه باب البدعة أن يأتي بأمرٍ لا أصل له مطلقًا من الدين ؛ بل يأتي بأعمال مشروعة ثم يضيف لها إضافات فتخرج عن حيّز السنة ، فهنا يأتي بالذكر ولكن يضيف له بعض الصفات بحيث يخرج به عن السنة وعن الدين عن هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . فأورد هذا الحديث لينبه على هذا الأمر ، يعني أن البدعة تكون أحياناً في الإتيان بالأمر المشروع ثم يضاف إليه إضافة غير مشروعة ، فهنا هؤلاء في بداية أمرهم أتوا بالذكر وأضافوا إليه ما ليس منه ، ثم انتقلوا إلى أمر آخر وهو أنهم جاءوا بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أرادوا إنكار المنكر وأضافوا إليه حمل السيف على الأمة ، ثم إنكار المنكر الذي هو بزعمهم منكر ، وهو في حقيقة الأمر ليس منكراً وإنما هو منكر بزعمهم ؛ لأنهم جهلة في دين الله .

فلاحظ كيف يرتقي بهم الضلال!! ينفصلون عن أهل العلم وعن الرجوع إلى العلماء ويستقلون بآراءهم مع جهلهم بدين الله تبارك وتعالى ، ثم يحصل منهم رفع السيف زعماً منهم أنهم يريدون إنكار المنكر ، يرفعون السيف على الأمراء وعلى العلماء وعلى أفراد المجتمع لأنهم على ضلال بزعم هؤلاء .

قال: ((**وَأَيْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ**)) ؛ يعني كأنه توسم فيهم ورأى من حالهم أو علم من حال من فتح على نفسه باب الضلالة أنه تجرّه إلى ضلالات أكبر فقال ﷺ : ((**لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ**)).

((**ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ**)) ؛ يعني ذهب وتركهم .

((**فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ ﷺ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْخِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ**)) ؛ رأينا عامة هؤلاء: يعني جُلّ هؤلاء . ويكون معنى هذا أن بعضهم اهتدى ورجع وترك، وعامتهم يقول عمرو رأيناهم يطاعنونا يوم النهروان. والنهروان: هي المعركة التي دارت بين علي ﷺ وبين الخوارج وقَتل ﷺ منهم خلْقاً عظيما بعد أن اجتهد في مناصحتهم وأرسل لهم ابن عباس وناظرهم ورجع منهم من رجع ثم امتنع منهم من امتنع وقاتلهم رضي الله عنه وأرضاه .

فيقول عمرو : ((**رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْخِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ**)) ؛ وهذا كما قدّمت فيه فائدة عظيمة في خطورة البدع والتحذير منها من جهة أن الإنسان لا ينبغي أن يتقالّ بدعة أياً كانت ، بل يحذر من البدع ، فالبدع تجر إلى بدع ، والبدع الصغار تجر إلى بدع كبار والأمر جد خطير . والواجب على الإنسان أن يحفظ إسلامه ؛ ومن حفظ الإسلام : الحذر من البدع ، ومن أبواب نيل فضائل الإسلام : البعد عن البدع ، لأن البدعة تضر بالإنسان وتضر بعمله وتسبب رد العمل وعدم قبوله وعدم نيل فضائل الإسلام .

فتوَّج المصنف رحمه الله كتابه «فضل الإسلام» بالتحذير من البدع مع أنه سبق أن عقد أبواباً متعددة في التحذير منها ، لكن هذا التكرار وهذه المعاودة للبيان كله تنبيهٌ على خطورة البدع وشدة ضررها على أصحابها في البُعد عن الإسلام وهديه القويم وسَننه المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

ثم ختم رحمه الله كتابه بقوله ((**والله المستعان وعليه التكلان**)) ؛ أي أن العون من الله والتوكل على الله ، فكأنه ينبهك هنا قائلا : يا من عرفت الحق الزم الحق واستعن على لزومه بالله ﷻ وتوكل عليه . منبهاً بذلك إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)) ، ما ينفعك بسطَه لك في هذا الكتيب «فضل الإسلام» وعرفته ؛ فاطلب من الله ﷻ العون ، وتوكل على الله ﷻ بحفظ هذا الأمر والمحافظة عليه والثبات عليه ، ((**والله المستعان وعليه التكلان**)) لأن الأمر بيده تبارك وتعالى.

ثم ختم بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قائلا : ((**وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين**)) . وبهذا انتهى هذا الكتاب .

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علّمنا ، وأن يجعل ما تعلمناه حجة لنا لا علينا ، وأن يغفر لمؤلفه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وأن يجزيه خير الجزاء على هذا الكتاب العظيم وعلى كتبه الأخرى العظيمة النافعة التي ترتب عليها خيرٌ عظيم ونفعٌ عميم وفوائد جليلة لأمة الإسلام ؛ فجزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء وأوفره ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .